العرب والحضارة الحديثة

بقلم

احمد زكي بك — صبحي المحمصاني

احمد سامح الخالدي — محمد بهجة الأثري

اشرف على اخراجه

لجنة الدراسات العربية في الجامعة الاميركية

دار العلم للملايين - بيروت

١٩٥١

3 1142 00289 4262

GENERAL UNIVERSITY
LIBRARY

BOBST
RETURNED
APR 11 1978
MAR 30 1978

DATE DUE

/al-'Arab wa-al-hadarah al-hadithah/

العَرَبُ والحضارة الحديثة

بقلم

احمد زكي بك — صبحي المحمصاني

احمد سامح الخالدي — محمد بهجة الأثري

اشرفت على اخراجه

لجنة الدراسات العربية في الجامعة الاميركية

NEW YORK UNIVERSITY LIBRARIES
NEAR EAST LIBRARY

دار العلم للملايين - بيروت

١٩٥١

N. Y. U. LIBRARIES

Near East
DS
231
.A1
c.1

الطبعة الأولى

بيروت – حزيران ١٩٥١

هيئة الدراسات العربية

في

الجامعة الاميركية في بيروت

•

الدكتور نبيه امين فارس (رئيس)

الاستاذ أنيس الخوري المقدسي	الدكتور جبرائيل جبور
الدكتور انيس فريحة	الدكتور البرت بدر
الاستاذ زين نور الدين زين	الدكتور اسحق موسى الحسيني
الدكتور نقولا زياده	الاستاذ ميشيل أبكاريوس

الاستاذ محمد توفيق حسين

مقدمة

•

تجتاز البلاد العربية اليوم مرحـــلة عسيرة ملأى بالصعوبات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية. وقد تتضارب الآراء في انجع الوسائل وافضل السبل للخروج من هـذه المرحلة. فمن العرب من يقضي حياته مردداً « الصبر مفتاح الفرج » ، ومنهم من ينتظر الخلاص على يد عدو عدوه ، ومنهم من يعالج قضاياه دوماً بالارتجال كلما حلت به ازمة فتق لهـــا حيلة. وهنالك فئة مختارة تؤمن ان جميع مشاكل العرب قابلة للعلاج اذا مـا صدف المسؤولون عن الارتجال وسعوا في سبيل العمل المنظم المستمر. وتؤمن هذه الفئة ان من واجباتها القومية المقدسة ان تيسر الفرص المناسبة والاحوال الملائمة لدرس قضايا العالم العربي الملحة دراسة علمية في جوٍّ علمي حر.

وهذه هي الغاية التي من اجلها وطدت هيئة الدراسات العربية في الجامعة الاميركية العزم على عقد مؤتمر تُطرح فيـــه بعض هذه القضايا الملحة على بساط البحث وتناقش فيها الاراء مناقشة علمية في جو نقي من العنعنات السياسية.

وهيئة الدراسات العربية هـذه تضم اساتذة دائرتي التاريـخ

العربي واللغة العربية في الجامعة ونفراً من اساتذة الاقتصاد والتربية والسياسة . ولا تتوخى الهيئة من جميع دراساتها سوى جلاء الغامض ، وتبسيط المعقد ، واحكام المتشابه ، والوصول الى الحقيقة او اقرب ما يمكن اليها .

وقد وفقت الهيئة إلى الظفر بمساهمة اربعة من قادة الفكر العربي في باكورة مؤتمراتها بالقاء المحاضرات العامة اساساً للمناقشة . فقد حضر من القاهرة حضرة الدكتور احمد زكي بك رئيس مجلس فؤاد الاول الاهلي للبحوث وأحد قادة الحركة الفكرية في القطر المصري الشقيق . وكانت محاضرته في موضوع « موقف الفكر العربي من الحضارة الغربية » . والقى الدكتور صبحي المحمصاني صاحب التآليف القيمة في فلسفة التشريع الاسلامي المحاضرة الثانية في موضوع « التشريع الاسلامي والمجتمع الحديث » . والقى المحاضرة الثالثة الاستاذ الكبير احمد سامح الخالدي رئيس الكلية العربية في القدس وصاحب التآليف العديدة في التربية والتاريخ والسير ، وكان موضوعه « المدرسة العربية — نشأتها وسَيْرها واتجاهها » . والقى المحاضرة الرابعة الاستاذ العلامة الشيخ محمد بهجة الاثري في موضوع « الاتجاهات الحديثة في الاسلام » .

كذلك ظفرت الهيئة بمساهمة نخبة من قادة الفكر في لبنان في المناقشات التي اثيرت حول هذه المواضيع الخطيرة ، والتي شاركَ فيها اعضاء المؤتمر مشاركة فعالة .

ولست بحاجة الى ان اردد اننا في هذه الدراسات لا نروج

لفكرة ما بل للفكر . لاننا نعتقد ان ليس في العالم فكرة ممتازة لها طلاسم من السحر تقيها منافسة الفِكَر الاخرى . ولا يجرؤ على التفكير الحر الا الرجل الحر . وبالتفكير الحر والتعبير الحر فقط تستطيع البلاد العربية ان تصل الى غايتها : مجتمعٍ حر في عالم حر يساهم في التاريخ مساهمةً حرة ويخلق جزءاً من حضارة العالم .

الجامعة الاميركية في بيروت
١٥ نوار ١٩٥١

نبيه امين فارس

مؤتمر الدراسات العربية

في

الجامعة الاميركية في بيروت

٧ – ١١ نوار ١٩٥١

وست هول

الاثنين ٧ نوار

١٦:٠٠ افتتاح المؤتمر (تحت رعاية الاستاذ ادوار نون وزير التربية)
حفلة شاي لاعضاء المؤتمر

١٨:٣٠ محاضرة عامة
موقف الفكر العربي من الحضارة الغربية
المحاضر : الدكتور احمد زكي بك
العريف : الدكتور جبرائيل جبور

الثلاثاء ٨ نوار

١٧:٠٠ مناقشة المحاضرة السابقة – الاعضاء فقط
العريف : الدكتور نقولا زياده
المعلق : الاستاذ محي الدين النصولي

١٨:٣٠ محاضرة عامة
التشريع الاسلامي والمجتمع الحديث
المحاضر : الدكتور صبحي المحمصاني
العريف : الدكتور انيس فريحه

الاربعاء ٩ نوار

١٧:٠٠ مناقشة المحاضرة السابقة ـ الاعضاء فقط

العريف : الدكتور جبرائيل جبور

المعلق : الدكتور اسحق موسى الحسيني

١٨:٣٠ محاضرة عامة

المدرسة العربية ، نشأتها وسيرها واتجاهها

المحاضر : الاستاذ احمد سامح الخالدي

العريف : الاستاذ جورج شهلا

الخميس ١٠ نوار

١٧:٠٠ مناقشة المحاضرة السابقة ـ الاعضاء فقط

العريف : الدكتور حبيب كوراني

المعلق : الاستاذ جبرائيل كانول

١٨:٣٠ محاضرة عامة

الاتجاهات الحديثة في الاسلام

المحاضر : الشيخ محمد بهجة الاثري

العريف : الاستاذ انيس المقدسي

الجمعة ١١ نوار

١٧:٠٠ مناقشة المحاضرة السابقة ـ الاعضاء فقط

العريف : الدكتور اسحق موسى الحسيني

المعلق : الاستاذ عبدالله المشنوق

٢٠:٠٠ مأدبة عشاء تكريماً لاعضاء المؤتمر

موقف الفكر العربي من الحضارة الغربية

للدكتور أحمد زكي بك

•

دعاني الرجال الأكرمون الى أن القي كلمة موضوعها «موقف الفكر العربي من الحضارة الغربية» .

ولقد نظرت في هذا الموضوع فوجدت انه لا بد لي من ان أقف وقفة قصيرة عند الفكر العربي أتبين ما معناه ، وان أقف وقفة اخرى قصيرة، عند المدنية الغربية، اتعرّف ما مبناها .

الفكر العربي

أما عن الفكر العربي فاني انظر الى العرب والمستعربين جملة فأجدهم يسكنون رقعة من الأرض خطيرة ، وهي على خطرها رقعة واسعة تمتد من الاطلسي الى ايران ، ومن تركيا الى ما يقارب خط الاستواء ، وانظر الى العرب أمماً فأجدهم أمماً متباينة الحظوظ من التقدّم ، مختلفة الأنصبة من الحضارة أياً كانت هذه، مختلفة قرونها التي تعيش فيها ، فبعضها يعيش في القرن العشرين ويكاد ان يعيش فيما بعده ، وبعضها يعيش في القرن العاشر ، بل في القرن الاول ، بل فيما قبل القرون . وأنظر في هذه الامم

فرادى ، فأجد في الكثير منها رأساً اطلّ على هذا العصر الحاضر يرى ما فيه ، ويعلم ظواهره ويعلم خوافيه ، أما سائر الجسم فلا عين له ، فهو يتبع الرأس كما تتبع الاجسام . وقد سهل الامر على الاجسام ان تتبع ، لو ان الرأس رأس واحد يتّجه الى غاية واحدة ، ولكنه رأس ذو شعب . رأس تشعب الى رؤوس ، منها ما ينظر الى الوراء فلا يرى في الدنيا شيئاً خيراً من ورائه ، ومنها ما ينظر الى الامام فلا يرى في الدنيا شيئاً خيراً من امامه ، ومنها ما ينظر الى الوراء ثم الى الوراء ويفضل أن يقعد فوق السور يستمتع بموكب الزمان الجاري .

فأي رأس من هذه الرؤوس يتمثل فيه الفكر العربي الذي يراد لي ان اتحدث فيه ؟.

أم يراد لي أن اتحدث عن الفكر العربي متمثلاً في كتّابه ؟ فهؤلاء على قلتهم ، كالرؤوس في أممهم ، صنوف واهواء . منهم المتأثر بالماضي غاية التأثر ، ومنهم المتحرر من الماضي غاية التحرر ، ومنهم اوساط بين هؤلاء وهؤلاء . وليس في التأثر بالماضي ما يعيب لان الماضي بعضنا ، ولانه بعض الحذر ، ولان الحفاظ الذي فيه بعض الوفاء . والفكر في كل العصور امزجة ، منها المزاج المتحفظ ، والفكر على اطلاقه لا يكاد ان يتحرر ابداً . انه عمل العقل ولكن تتنازعه القلوب . ان الفكر لا يكاد يخلو من عاطفة ، والعاطفة وليدة السنين الغوابر . كذلك ليس في التحرر غاية التحرر ما يعيب المتحررين . انهم ضيقون بزمانهم ، آسون لحال أممهم ، ثائرون على ما يرون من بؤس وجهالة ، فهم يريدون ان

يقفزوا في الزمان قفزاً ليعوضوا على أنهم ما فات .

ففي أي هؤلاء الكتاب، وهم مختلفون ، يتمثل الفكر العربي؟

وليس في الشرق فكر منظم . ليس في الشرق جماعات من الناس لها أفكار ولها أهداف إلا في السياسة . وحتى جماعات السياسة جماعات لا تجمعها أهداف بيّنة . ان هي إلا غايات مبهمة كثيراً ما يوحي لي شيطاني بأنّ أوضح غايةٍ فيها ابهامها . ان الشيء المبهم يجري وراءه الاشتات من الناس ،وفي الايضاح التفرقة . انهم يطلبون بالابهام الكثرة ،وتلك عندهم غاية الغايات .

ولقد يتحدث الناس عن الفكر العربي الذي لم يتوحد بعد ، فيقولون ويطنبون ، ويأتون لك آخر الامر بالشيء الجميل او غير الجميل ، فاذا بهذا الشيء من خلقهم ، واذا به ، لا الفكر العربي ، ولكن ما يجب أن يكون عليه الفكر العربي ، وما يجب أن تكون في حسبانهم خطة الحياة .

ان الفكر فكرهم ،وهو عربي شرقي بمقدار ماهم عرب شرقيون . وفي غيبة الفكر العربي الموحد ، وعلى تفرقه وتشتته ، لا بد من قبول هذا الفكر ، ولو فكر واحد ، وهو على الاقل فكر آحاد ، وهو على الاقل يمثل منحى من المناحي الفكرية الكبيرة .

فأنا اذا تحدثت اليكم اليوم عن الفكر العربي، فلا أدعي للذي أقول من التمثيل أكثر من أنه يشاركني في الذي أقول طائفة في الشرق العربي غير قليلة .

وبعد فما يجب أن ننسى أن الفكر انفعال ، وأن فكر الفرد من صنع البيئة وصنع النشأة وصنع الزمان .

ثم ما الحضارة الغربية التي أبحث عن موقف الفكر العربي منها ؟

لقد كان للانسان حضارات بكل أرض وبكل زمان. حضارة مصرية ، وحضارة آشورية وبابلية وفينيقية . حضارة اغريقية ورومانية . حضارة هندية وصينية . وحضارة عربية أثبتت وجودها وفرضت فروضها وشاركت في الحياة على هذه الارض الف عام . ولكل من هذه الحضارات فضل ، ولكل منها شيء ، واشياء تميزها . وهي كلها مجهودات للانسان حميدة في سبيل غاية لا يدريها . والانسان يفنى وهذه المجهودات غير فانية ، أو الكثير منها غير الفاني . وهي مجهودات خالدة بحسبانها أشكالاً وانماطاً وأساليب للعيش وقوالب للفكر تتوارث ، كما الانسان خالد بحسبانه نطفاً تتوارث . ومظاهر الحضارات ، ومَن أظهرها ، يفنيان جميعاً ، كما قال المتنبي :

أين الذي الهرمان من بنيانه ما قومه ما يومه ما المصرع
تتخلف الآثار عن اصحابها حيناً ويدركها الفناء فتتبع

الا الفكر . الا الفكر الذي أنتجها ، أو الفكر الذي أنتجته ، فهذان يخلدان ، لأن الفكرة لا تموت . ولقد بقي من الحضارات الماضية أفكار ترقد في أوراق ، لا نزال نجتليها ، ونسرح البصر ونسرح البصيرة فيها .

والمدنية الحاضرة انما هي جماع تلك المدنيات جميعاً . والمدنية

الحاضرة تجد في تلك المدنيات الغابرات فكرة ترضاها فتنتفع بها، أو تجد فكرة لا ترضاها فتتجنب أذاها . فهي فكرة تهدي على كل حال حتى برفضها ، كالطريق الذي لا تسلكه يدلك على الطريق الذي تسلكه .

والمدنية الحاضرة تميزت بصفات وتألفت من عناصر سوف أجتهد في اخراج بعضها وابرازه صفة صفة ، أو عنصراً عنصراً ، وأدلي بموقف الفكر العربي ، كما أراه ، منها .

الحضارة والعلم

ان المدنية الحاضرة ميزتها الكبرى العلم ، العلم الطبيعي ، العلم التجريبي .

والعلم ليس كالناس يولد في ساعة . انه يولد على القرون فلا تكاد تعرف له ميلاداً . وأنا ان ذكرت الميلاد ، حلا لي دائماً أن اتخذ من حياة لافوازييه للعلم ميلاداً . وهو ولد عام ١٧٤٣ ومات عام ١٧٩٤ ، فحياته استغرقت النصف الثاني من القرن الثامن عشر . ولافوازييه أبو الكيمياء الحديثة لأنه كشف الهواء، كشف عناصره . وما كانت مدنية مؤسسة على العلم الطبيعي لتكون والناس في جهالة من الهواء الذي منه يحيون ، وفيه تحدث الاحداث للاشياء والناس . انه لولا أن تركيب الهواء اتضح ، ما امكن ان يكون علم ولا مدنية علمية . واذن فاذا قلنا ان العلم ، والمدنية العلمية ، لم تقف على ارجلها الا من نحو قرنين لم نعدُ الصواب . والعلم قبل ذلك لعله كان يحبو ، ولعله طال

حبواً ، وطال كثيرا .

وصفة العلم هذه هي الغالبة اكثر الغلبة على المدنية الحاضرة ، لان الكثرة الكبرى من نتائج العلم مادية ، وهي تتصل أكثر اتصال بما يرى الناس ، ويسمع الناس ، ويحس الناس ، وبما يأكلون ويلبسون ويسكنون ، وبوسائل بها ينتقلون على الأرض او على الماء او في السماء . وهي تتصل بضرورات الحياة ورفهها . ولو ان رجلا من مدينة غابرة نُشر ونفض عن نفسه التراب ، وأخذ يمشي بيننا كما فعل عيسى بن هشام ، لخفي عليه اول الامر من مدنيتنا كل شيء ، الا هذه الظواهر المادية الكثيرة ، فهي ستبدهه ، وهي ستدهشه ، وهي ستشدهه . وهو سيؤخذ بها اول يوم ، اما مظاهر المدنية الاخفى فستتكشف له على الاشهر ، ومنها ما لا يتكشف الا على السنين ، لانها لا تتكشف الا بالدراسة الطويلة والممارسة .

وهنا نتساءل ، ما موقف الفكر العربي من هذا الاصل الاول من أصول المدنية الحديثة ؟

والجواب انه المناصرة بغير شرط ، وبغير حدّ ، وفي غير احتياط . ذلك ان العلم وليد المنطق ، والمنطق لايرفضه ويرفض نتائجه ذو عقل . واحسب أنا جميعاً ، أهل الشرق العربي ، من العقلاء .

وسبب آخر لمناصرة العلم ، انه سبب للرفاهية ، ورغد العيش ولينه ، عظيم . وهو لتسهيل الحياة وتيسيرها ، وليس بعاقل كبير العقل من يريد الحياة خشنة ، اومن يريدها عسيرة ، في غير ضرورة .

وسبب ثالث ، ان العلم يجعل الحياة أكثر امتلاء ، وهي بامتلائها أكثر زماناً ، فهي اطول . والذي يعيش اليوم ، في بيئة هذه الحضارة العلمية أربعين عاماً ، فقد عاشها أربعين كثمانين من العصور الاخرى . ان سنوات العمر ، كورق النقد ، تعلو وترخص ، ويصيبها التضخم ، على انحطاط قيمة ، ويصيبها التقلص أحياناً .

وسبب رابع لمناصرة العلم ، ان الناس ، بسبب العلم ، ولاسباب غير العلم ، زادوا أعداداً ، وزادوا فوق ما تسعهم الارض ، وفوق ما تكفيهم غذاء ، وفوق ما تكفيهم كساء . وهذا الضيق يقوم بتفريجه العلم . فهو يفرض على الارض ان تنتج الكفاية من الطعام ، والكفاية من اللباس ، والكفاية من ضرورات العيش .

ان قوماً يشكون الفقر لا يأخذون بأسباب العلم . وكذلك قوم يشكون المرض . ان العلم أسرع ذهّاب بالفقر وأسرع ذهّاب بالآلام . إنه يجثّ الآلام من أصولها ، باجتناب أسبابها ، وعنده أن الوقاية خير من العلاج .

وسبب خامس لمناصرة العلم ، ذلك أنه لأسباب خارجة عن العلم ، لا يزال الناس يأكل بعضهم بعضاً ، ويأكلونهم بالعلم ، ولا أحسب أن أحداً في الشرق العربي يحب أن يؤكل ، والعلم يمنعك من أن تأكلك الذئاب .

لقد كدت أحس بشيء من السفه في تعديد ما للعلوم من منافع ، ومن أسباب مناصرته . ذلك أن من بعض السفه تعداد البدائه .

والفكر العربي مناصر للعلم في كل ما ذكرت من هذه

الحقول المادية . وهو مناصر له ايضاً في سائر الحقول ، فعلى العلم وعلى نتائجه يجب أن تتأسس معاني الحياة ، وعقائد الحياة وما بعد الحياة . ان العلم وحدة لا تتجزأ .

وقد نضيق بالعلم وبنتائج العلم ، فنطلب الترويح في غيبته ، ونطلب الرفه بنفيه وابعاده . وقديماً نفى الناس العقول بالشراب ليتروّحوا ، ولكن الى حين ، يعودون بعده الى ممارسة الحياة على العقل الواعي وعلى القلب الصاحي .

ونحن نناصر العلم ونعلم أن من الناس من خلطوا بين أشياء اثبتها العلم فهي حقائق ، وأشياء خالها العلم فهي ظنون ، وأشياء لم يمسها العلم لا بالظن ولا باليقين ، فهي من خلق أصحابها .

ونحن نناصر العلم ونعلم قصوره وقصور أداته . ان أداة العلم لا تزال الوزن والقياس ، ولكن قوماً يريدون أن يقحموه غصباً فيما لا يوزن ولا يقاس ، لا طلباً لشيء قد يكون وقد لا يكون ، ولكن اثباتاً لشيء هو في أذهانهم كائن قائم ، وقد يكون قائماً وقد يكون كائناً ولكن ليس هو مما يستطيع العلم أن يسير اليه بأداته الحاضرة .

فهذا هو العلم ، أظهر صفة من صفات المدنية الحاضرة .

الفكر العربي والديمقراطية

ثم الى الديمقراطية ، تلك الصفة الثانية من صفات هذه المدنية .

ونحن نعني بالديمقراطية هنا معناها الحرفي الذي يدل عليه لفظها ، وتدل اشتقاقاته ، ذلك حكم الشعب بالشعب . انها

الديمقراطية السياسية .

ان العصور الغابرة لم تعرف الديمقراطية الا حكمة في القول عابرة ، والا نصيحة يأخذ بها من يأخذ ويدع من يدع ، والا حثاً للحكام على الشورى لم يبلغ حد الفرض ، ولم يكن له أثر يطول .

ولقد عدّوا أثينا البلد الديموقراطيّ الاول الذي عرفه التاريخ . وكانت أثينا مع هذا مدينة من مدائن الأغريق أكثر أهلهـــا العبيد . كانت ديمقراطيتهم ديمقراطية للقلّة فيها من الاحرار .

وكانت ديمقراطية محدودة مشروطة . وهي ديمقراطية ضاقت بالذي قال سقراط ، بالذي صرح به من آراء ، فقضت عليه بالموت . وهي الديمقراطية التي قام فيها فليسوفها الثاني أفلاطون يقول في جمهوريته بحصر الحكم في فئة من خيار الناس ، هي وحدهـــا الصالحة ، وهي وحدها المسؤولة ، وسائر الناس لها تبّـع .

وجاء من بعد الاغريق الرومـان فما عرفوا الديمقراطية في الحكم . كانت الديمقراطية بينهم اسماً في عهد الجمهورية ، ثم زال حتى اسمها في عهد الاباطرة . ولقد جهد الرواقيون الرومان في ابراز معنى المساواة بين الناس . شيشرون Cicero ، سنكا Seneca ، جايوس Gaius واضراب لهؤلاء . ولكن لم يكن لهذه الفئة من الخطباء والكتاب من اثر في اسلوب الحكم ، انما كان اثرها في القانون من حيث تخفيفه وترقيقه لا سيما على العبيد الارقـّاء .

وجاءت المسيحية فحاولت ما حاولته الاجيال من قبل ومن بعد : أن تجعل الناس سواسية . وحاولت ان ترفع حظ الفقير وان تجعل الثراء أمانة في عنق صاحبه يرعى فيه ، وبه ، صوالح

الناس . ولكن لم تلبث المسيحية ان صارت دين الرومان ، ولم تلبث الكنيسة ان صار لها وجود ذاتي ، وصار لها استقلال وقوة وصار لها ثروة ، وصار حكم ، وصاحب الحكم لا ينزل عن حكمه طوعاً ليقسمه بين الناس .

وجاء الاسلام فقال بالذي قالت به الاديان وزاد . وجعل الحكم شورى ، والرّق جعله كفّارة لشتى الخطايا ، تفريجاً له وتكريماً فيه . وقال : سلمان منّا آلَ البيت . وقال : ان اكرمكم عند الله اتقاكم . وجعل للفقير حظاً في مال الغني . وفعل وفعل ... ولكن لم يلبث الاسلام ان صار ملكاً عضوضاً ، ولم يلبث الخلفاء ان صاروا حكاماً مطلقين ، يصلح منهم من يصلح ويفسد من يفسد ، والناس تتلقف الخير وتتلقف الشر جزافاً كما يأتي به الزمان .

وجرى الحال على هذا المثال في الامم قروناً ، لم يطمئن الناس فيها على ما في جيوبهم من مال ، ولا على ما فوق اكتافهم من رؤوس . حتى جاء القرن السادس عشر ، وبدأت بوادر الديمقراطية بين أمم الارض في اوروبا . بدأت بانشقاق الكنيسة على نفسها . ودافع المنشقون عن عقائدهم . والنقلة من الدفاع عن الحقوق الدينية الى الدفاع عن الحقوق المدنية نقلة يسيرة . وجاء القرن السابع عشر فهب الانجليز يوطدون دعائم السلطة في الشعب بالدفاع عن برلمانهم . فكانت الثورة . وكان أن طاح الرأس الذي دار به خمر السلطان المطلق فأساء حكماً .

وجاء القرن الثامن عشر فقامت الثورة الفرنسية ، مهد لها

الكتاب الذين أسموهم بالفلاسفة، فلتير Voltaire ،ديدرو Diderot، مونتسكيو Montesquieu ، روسو .

وقبل الثورة الفرنسية بأعوام وقعت حرب استقلال اميركا، وباستقلالها توطّد الحكم الديمقراطي فيها .

وانفسح المجال أمام الشعوب بعد ذلك لان يتخذوا الديمقراطية عقيدة ، وان يتخذوها أسلوب الحكم . وتعددت الاساليب الى يومنا هذا ، والغاية واحدة .

والفكر العربي يقف من الديمقراطية، من حكم الشعب بالشعب، موقف المناصر الشديد المناصرة . وهو يشتد في مناصرته لها بمقدار ما اعوزه منها . وهو يناصرها ويعلم انها لم تبلغ الغاية مما أمّل الناس منها ، ولكنه يناصر لانها الى اليوم خير ما ابتدع الانسان من اسلوب . والفكر العربي يناصرها وهو يعلم ان حكم الشعب بالشعب ، وهو جاهل ، وخيم العواقب ، ولكنه يناصر لان حكم الشعب يقابله حكم الطغاة ، وهو اوخم عاقبة ، وهو اعون على دوام الجهل ودوام العجز ، ودوام الفقر، ودوام الذل والمسكنة ، وكثيراً ما يسوّل لي الشيطان ان ارى ان الطغيان يأتي منا والينا ، أرحم منه الطغيان الذي يأتي من الاعاجم، لانه مع طغيان الاعجمي في هذا العصر المدني ، قد يأتي العلم، وقد تأتي الحضارة ، وقد تأتي نسائم للحرية لا تهبّ والابواب مغلقة . والاجنبي الطاغية قد يكون اسهل اقالة . وانت اجدر معه، ان قلت هلم ، ان تستجيب لك القلوب ، او تستجيب لك الحناجر ، وان كنت حسن الظن فقد تستجيب السواعد .

العلم والديمقراطية

فهذا هو العلم وهذه هي الديمقراطية ، أظهر صفات هذه المدنية الحاضرة ، واضخم صفاتها . وقد جاءا الانسانية معاً ، متواقتين ، كأنما كانا على ميعاد .

والى جانب هاتين الصفتين صفات أخرى ، اتصلت بها المدنية الغربية ، بعضها تقدم العلم في الزمن ، وتقدم الديمقراطية ، فكان من خوالقها . وبعضها تأخر في الزمن عن العلم وعن الديمقراطية ، فكان من مخلوقاتها . وبعضها امتزج بهما فلا تدري أهو خالق ام مخلوق . وسأصيب من ذلك طرفاً .

المدنية وحرية الفكر

واول هذه حرية الفكر ، وهي صفة من صفات المدنية الحاضرة أصيلة ، بدونها لا يكون علمٌ ممكناً ، وبدونها لا يكون حكم الشعب بالشعب ممكناً ، وعلى بداهة هذا فقد ضاق بالحرية ، حرية الفكر ، صدرُ الزمان . والعرب يستطيعون أن يفخروا بانه جاءت عليهم حقبة من الدهر كانوا فيها من أكثر أهل الارض رحابة صدر .

لقد كان من اسبق صنوف الحجر على حرية الرأي في الذي نعرف من التاريخ ، الحجر على الرأي الديني المخالف ان يشيع . والعرب اختلفت في احكام دينها الغالب ، وجعلته مذاهب استقرت على اربعة ، يستحكم بينها الخلاف أحياناً الى حد التناقض ، ومع هذا تجمع بين أهل هذه المذاهب الصلاة ، وتجمعهم سائر المشاعر ، ولا يخطر على بال احد انه ومن على يساره او على يمينه مختلفان .

واتسعت صدور الشرق لمثل هذا في القرون التي ضاقت فيها صدور الغرب ، فكان الاضطهاد من اجل الرأي في الدين ، وكان الطرد من الكنيسة ، وكانت محاكم التفتيش ، وذلك في دين عيسى الذي ان اخذ عليه شيء في هذا الصدد فهو الزيادة في الرحابة ، ومقابلة العداوة بالصداقة ، والكراهة بالحب ، والاساءة الزائدة بالاحسان الزائد .

ومن هذا فقد اساء العرب الى حرية الفكر اساءة لا تغتفر ابداً ، ذلك انهم اغلقوا باب الاجتهاد في الدين ، ليفرضوا رأي قرن على سائر القرون . فحجروا بذلك على العقول ، حجروا عليها لما كسبت على الزمان الرجحان ، واتسع افقها بالعلم ، واجتمع عندها الكثير من الخبرة ومحاصيل الاجيال .

على أن الحرية الدينية اصبحت في أغلب أمم الارض اليوم عادة تكاد أن تكون شائعة . وما كان ذلك عن رحابة ، ولكن عن قلة خطر الاديان عند من بيدهم سلطان الحظر والاباحة . وقام مقام الحجر على الحرية الدينية الحجر على الحرية السياسية . واخيراً جاء الحجر على الحرية الاقتصادية ، فهي اليوم أشد أنواع الحريات كراهةً الى ذوي الحكومة والسلطان .

ولقد تميز العصر الحديث بقيام دكتاتوريات من صنوف وانواع ، كان اول شيء خشيته فأهدرته حرية الرأي ، يجهر بها الفرد او تجهر بها الصحافة ، وهي اللسان الذي اذا قال استمعت له ألوف الألوف من الآذان .

والرأي العربي يقف من حرية الرأي موقف المظلوم الذي

كلما نطق قيل له الخير في السكوت . ومن أمم العرب اليوم ، أمم لا يستطيع بها الرجل المواطن ان يقول إلا همساً . ومنها أمم أكثر مجالاً في القول ، ولكن بها الساسة أحرص ما يكونون على حرية القول وهم في معارضة ، فاذا ما ولّوا الحكم فتلوا الحبل الذي سوف يلتف على أعناقهم عندما يعودون فيعارضون.

ان حرية الرأي والجهر به ، كسائر الحريات ، لا بد لها من تحديد وتنظيم ، والاّ كان منها الجور من الفرد على الفرد. ولكن الجهر بالرأي فيما يمس حقوق الرأس عامة حق من حقوق الشعب لا مماراة فيه ولا مهادنة . وبهذا يأخذ الفكر العربي ، فيعطي لحرية الفكر اكبر مجال ولا يقف بها الا حيث يختل الأمن وتهدر الارواح .

المدنية والمساواة

ان المعاني الانسانية ، مثل الناس ، بينها أواصر وأرحام ، والمعاني التي تتصل بالتحرر يولد بعضها بعضاً ، ويأخذ بعضها عند الذِكر برقاب بعض . وكذلك المعاني التي تتصل بتقييد الحرية ونفي الارادات الانسانية ، يولد بعضها بعضاً ، ويأخذ بعضها برقاب بعض .

والمساواة معنى نشأ مع الزمرة الصالحة من المعاني . فنشأ مع الديمقراطية ، ونشأ مع الحرية الفكرية ، اذ ما كان يعقل ان يكون حكم الشعب بالشعب ممكناً الا أن تكون مساواة في الحقوق السياسية . وما كانت حرية الفكر ممكنة الا أن تكون مساواة

في الحرية الفكرية . ومن هذين هدفت فكرة المساواة بين الناس في كل شيء من شؤون الحياة .

واذا نحن نظرنا الى الوراء البعيد والوراء القريب ، وجدنا أمماً قام مجتمعها على الطبقات ، أعاليها الاشراف ، وأسافلها الانجاس او أشباه الانجاس ، وأمماً أخرى كانت المساواة فيها مساواة عند الله لا الناس ، وامماً أخرى كانت المساواة فيها أملاً تحقق أقله واهدر اكثره ، ثم ذهبت الايام بالبقية الباقية منه . والمدنية الحاضرة لها معانٍ في المساواة جميلة ، الا انها لا تزيد جمالاً عن معاني القدماء ، ولا عن معان جليلة جاءت بها الاديان . ولكن الفرق واسع بين المعنى الجميل يسكن صدرك ، والمعنى الجميل تجعل منه أُسلوباً قائماً من اساليب العيش .

وفضل المدنية الحاضرة على اكثر المدنيات الغابرة انها فصّلت ما كان قد اجمل ، وانها خلقت وابتكرت لتنفيذ معنى المساواة أساليب . وسأفصل بايجاز هذا . ولكن لا ضرر ان اسبق فأقول : ان المدنية الحاضرة لم تبلغ في المساواة بين الناس الغاية ، ولا اقتربت منها ، ولكن خطت اليها الكثير الواسع من الخطوات .

المساواة أمام القانون

وأول المساواة ، المساواة أمام القانون ، وهي لا يمكن ان تكون في أمة والحكم فيها مطلق . ذلك ان الحكم المطلق يقوم به رجل له بطانة تسنده . والبطانة لها ثمن ، والسند له ثمن . وهي بطانة وهو سند اكثر ما يكون للشيطان فهو أفدح ثمنا . والقانون

الذي يُثغر مرة يثغر مراراً ، ثم يكون كالثوب الذي تهلهل حتى ما تنفع فيه الرقع . والشعوب عانت في دفاعها عن القانون من نفوذ ذوي الأمرة وذوي المال عناء كبيراً. وقد قضت المدنية حيث توجد مزدهرة ، على نفوذ ذوي الأمرة . يقف رجل البوليس السيارة في الطريق ، وقد اندفعت بما لا يريد القانون من سرعة ، فيقضي بغرامة صاحبها . فيحتج هذا بمكانة له أو جاه ، فيبتسم البوليس الصغير الفقير ، وترتفع الغرامة ضعفا أو أضعافاً . ولم يستطيع القانون بعد ان يقضي على نفوذ المال . ومن بعض أسباب ذلك ان استصراخ القانون نفسه يحتاج الى المال .

والمساواة في العدالة تحتاج مع القانون الى رجال ينفذونه وينفذونه . وهؤلاء أعزّ مطلبا . من اجل هذا كان الدفاع عن استقلال القضاة بضروب الحمايات ، وكان الحق في ردّ القاضي اذا اتصلت به ريبة ، وكان نظام المحلفين زعماً بأن الكثرة أعسر ان يتطرق اليها الفساد .

وما احوج امم الشرق الى بعض ما وصلت اليه امم الغرب من مساواة امام القانون .

المساواة فى الاصول

ومن المساواة المساواة في الاصول، أو المساواة رغم الاصول. والمساواة رغم الاصول صرخة في الناس قديمة ، وهي صرخة في الشعوب العربية قديمة معروفة . بل هي لم تحتج في العرب الى صراخ ، ذلك ان هذه المساواة في طبعهم ، وهي مستمدة من

بدوهم ، فالنبي يا محمد ، والخليفة يا أبا بكر ويا عمر . لم يكن فيهم صاحب العزة او صاحب النيافة او صاحب الفضيلة . كانت العزة فيهم وكانت الفضيلة أصلا ، فهي لا تحتاج الى تنويه . وكانت مدارسهم مساجد مفتحة الابواب لكل طالب ، فلم تكن فيهم اكسفورد ولا كمبردج . وكان أصل المرء لا يقف به دون ان يصل الى اسمى المراتب . فالمجوسي او من كان ابوه مجوسيا يصل الى اكبر مراكز الدولة، ومن ذلك البرامكة . وبائع الحرير همّه الى الشريعة فيبلغ بها عند الناس المكان الارفع ، فيحترمونه ويجلونه ويتبعونه ، فذلك ابو حنيفة النعمان . والحياك يلد ولداً لا يجد سبيله الى العيش الا من سقي الماء يحمله في جامع عمرو ، فيصله ذلك بالعلماء فيسمع منهم ويحفظ عنهم ، فاذا به الشاعر الكبير الفحل . فذلك ابو تمام . والشعب العربي يألف كل هذا ولسان حاله يقول : الكل لآدم ، وآدم من تراب .

وبقي هذا الطبع في الشعوب العربية الى عصرنا هذا، في البدو والريف، وفي اكثر اهل المدن، الا جماعة من هؤلاء أخذوا عن عهود من الحكم لا يبارکها الله نعرة لا تأتلف والطبع الشرقي العربي أبدا . والا جماعة قليلة اخرى رفعها المال رفعا ، وحط بها الجهل، وهي تأبى ان تنحط ، فاتخذت من المرتفع ذريعة الى الرفعة ، وحاطت نفسها بزخرف من زخارف الحضارة كاذب ، لعل في بهرة الظاهر ما يغني عن استجلاء الباطن .

والشعوب العربية لم تضق بغير العربي ، فنبغ فيهم الكثير من الاعاجم ، ولم يضيقوا بغير المسلم ، فكان الاخطل من المقربين

الى خلفائهم ، خلفاء بني امية ، والدين جديد وقلوب المسلمين يقظة . واليهود وجدوا بين العرب ملجأ لما ضاقت بهم سبل الارض . والسود . لم يضق احد بالسود ولا بالصفر ولا بالحمر ، ويلقى الابيض الاسود الى يومنا هذا فلا يكاد ، على اللسان العربي ، ان يلحظ سواده .

ففي المساواة بين الناس رغم حقارة الاصل ، وعلى اختلاف المولد من الارض ، وعلى اختلاف لون الجلد ، ليس في المدنية الحاضرة درس واحد تلقيه على الشرقي بل ان دروس الشرق للغرب في ذلك كثيرة نافعة .

المساواة بين الرجل والمرأة

ونوع آخر من المساواة جاءت به المدنية الحاضرة ، تلك المساواة بين الذكر والانثى . وتلك مساواة على المجتمع الغربي طارئة . فحظ المرأة في شرق وغرب كان سواء . والرجل كان دائماً ، في شرق وغرب ، قوّاماً على المرأة . والمرأة في المجتمع الغربي الى اليوم ، تتعهد عند الزواج ، على يد القس ، بالطاعة لزوجها . ولكن معنى المساواة اخذ يتغلغل الى كل شيء ، فيبلغ فيما يبلغ علاقة ما بين الرجل والمرأة . وتعلمت المرأة الغربية فوجدت نفسها كفيئة للرجل فرفضت قيام الرجل على المرأة . ومنهن من رفضنه شكلاً واكتفين . ومنهن من رفضنه موضوعاً . وخرجت المرأة تعمل كما يعمل الرجل ، وتكسب كما يكسب ، فأغراها استقلالها في الكسب بطلب استقلالها عند الزوج . والحق ان

قيامة الرجل على المرأة التي فرضتها الاديان ما كانت ترمي الى ظلم ولا اجحاف ، وما كانت تمنع من تعاون وتفاهم . ولكن البغي في الناس قديم . وقد عصم الحب المرأة من بغي الرجل ما دام ، وعصمت الذرية الناتجة منهما ، وعصمت حاجة الاسرة الى السلام وضيقها بالنزاع القائم والقلق المتصل ، ولكن كان في الرجال بغاة لم يكن للنساء منهم من عاصم . واني ، في هـذا العصر الحاضر ، وعلى الثقافة المنتشرة في الناس بين رجال ونساء ، لا اكاد اتصور رجلاً مثقفاً ، تأتيه زوجته ، وهـي امرأة مثقفة ، تقول له بيني وبينك خلاف خطير لا ارضى لك ان تكون فيه خصماً وحكماً ، فانا اطلب حكم الله فيه على ايدي قضاة من قضاة الله ، في محكمة من محاكم الله ، لا استطيع ان اتصور رجلاً تأتيه امرأة تقول له هذا ويقول لا . وذلك اكبر ما تطلبه المرأة من مساواة .

وتطلب المرأة المساواة السياسية ، وتطلب ان يكون لهـا صوت كصوت اكثر نساء الغرب . فيقال لها انك لا تفقهين في السياسة . وينسى القائلون بهذا ان السياسة سياسة دولة ، فهي الى جانب انها سياسة حكم ، هي سياسة مال ، وسياسة مجتمع ، وسياسة اسرة ، وسياسة ضرائب اكثر ما تشقى بها المرأة ، فلا بد ان تقول فيها وان تقول سديداً . ثم كم من الرجال يفهم تلك السياسة التي يريدها القائلون بحرمان المرأة . ان حقوق الناس فـيما يتصل بالسياسة على اوسع معانيها يجب ان يكون مناطها ، لا ان هذا ذكر وتلك انثى ، ولكن ان هذا او هذه يعقلان او لا يعقلان ، وكم حظهما من جهل او علم ومن عرفان .

وتطلب المرأة المساواة في العمل . وعمل المرأة لا شك في البيت . وهكذا هي الكثرة الكبرى من نساء الغرب . ان المرأة لا تستطيع ان تلد وتربي اطفالها وتكسب خبزهم في وقت واحد ، إلا ان تضطرها الضرورات . والذي دفع بنساء الغرب ان تعمل كما يعمل الرجل انما هي الضرورة وقسوة العيش . ان المرأة العانس التي لا رزق لها انما تأكل من عملها او تأكل بثديها او بغير ذلك ، وليس من حق احد ان يقول لها لا تعملي إلا ان يضمن لها رزق الحياة . والقول عنـــدي ان نفتح ابواب العمل للنساء جميعاً ، ليأخذ كل من الاعمال ما يصلح له ، وعندئذ تعمل قوانين الحياة عملها فلا يكون منها إلا الخير . ان الذي يغري النساء بدق الابواب ، ودقها عنيفاً ، ان الابواب مغلقة . وللنساء في حيلتهن مـــا يكفي لرد الكثرة الكبرى منهن الى وظائفهن الاولى التي تخصصن لها في الحياة ، تلك ايجاد الحياة في ظل الحب ، ورعرعتها من بعد ايجاد ، واسكان هذه الارض .

وكان من مساواة الرجل بالمرأة في الغرب ، ان وجدت المرأة نفسها تهدر من الحرمات ما اهدر الرجل ، وهي مساواة في سبيل الشيطان لا يرضاها انسان ، ولكن رضيها الغرب لشدة احساسه بمعنى العدالة والمساواة حتى في القبيح من الامور .

المساواة في فرص العيش

ومن المساواة المساواة في فرص العيش وطلب الارزاق ، وقد نسمي هذه الديمقراطية الاقتصادية . وللمدنية الحاضرة فيها

أساليب عدة . منها الرأسمالية . ومنها الاشتراكية وهي صنوف . ومنها الشيوعية . اما الشيوعية فلسنا ندريها ، ومن اجل هـذا ننحيها . واما الرأسمالية فشرٌ اذا ما تركت في ايدي فئات من من رجال لا يحركهم بحكم الطبع الا الاثرة والا الهوى ، والا الرغبة في زيادة المال أضعافاً ، وزيادة ما يأتي به من جبروت . ويصنع منهم موقفهم من مناهضة الشعب عصابة تقوم فيه تبيع حقوقه وتشتري وهي بعيدة عن ريبة الشعب لأنها بعضه ، وهي ترضى دائماً ان تختفي وراء الحاكمين ، ما بقيت في ايديها مقاليد الامور . وهؤلاء ان كانوا شراً على امتهم ، فشرهم على علاقات ما بين الامم اكبر .

ولكن الرأسمالية غير ذلك اذا كانت رأسمالية شعوب ، وكان لكل فرد من افراد الامة فيها نصيب . يعملون جميعاً للانتاج ، ويقفون جميعاً صفاً واحداً عند التقسيم . فهـذه هي الاشتراكية واليها يجب ان يتجه الفكر العربي ، وان يتمسك بها مبدءاً . اما انفاذها فدونه الجهاد المر الطويل .

المساواة فى التعليم وفرصه

ومن المساواة التي ابتدعتها المدنية الحـــاضرة ، المساواة في التعليم وفرصه . بل هي جعلت التعليم اجباراً لبضع سنين وسمته الزامياً ، وسمته اولياً . والتعليم على الاجبار لا يكون الا مجاناً ، فجعلته مجانـــاً .

وكان التعليم قبل ذلك ، في سائر الامم ، وفي سائر المدنيات ،

وعلى القرون ، مقصوراً على فئة قليلة من الناس . ثم اراد الله لهذه الفكرة الجديدة ، فكرة نشر التعليم وتعميمه ، اراد لها ان تنبت في الغرب من اوروبا ، عند انشقاق الكنيسة . رأى المنشقون ، البروتوستانت ، أنّ خلاص الشعب الديني لا يكون الا بالوصل المباشر بينهم وبين الله عن طريق انجيله . واذن لابد من القراءة . واذن لابد من التعليم ، وعن طريقه يبشرون . وقلم الكاثوليك يعارضون نشراً بنشر ، وتبشيراً بتبشير ، وفتح مدارس بفتح مدارس . وتألف اليسوعيون جماعات كان لها في هذا الميدان بأس شديد . وجاءت الديمقراطية فرأت ان تنشر التعليم ، كما رأت الكنيسة بشقيها ، ولكن لغير تلك الاسباب . رأت الكنيسة نشر التعليم بين الشعوب ليكون سبيلهم الى السماء أهدى ، ورأت الديمقراطية نشر التعليم لتكون الهداية على هذه الارض . وتنازع الطرفان امر التعليم . تنازعت الكنيسة والدولة . وغلبت الدولة آخر الامر .

وجاء القرن التاسع عشر ، واكتمل ، فاذا التعليم قد عمّ في اكثر الامم الناهضة .

ولا اظن ان احداً يريد ان يسألني ما موقف الفكر العربي من هذا الكسب الجديد من مكاسب المدنية الحاضرة ؟

انه ليس دليل على حاجة الشرق العربي الى التعليم ، يكون الزامياً ، ويكون عاماً ، كمحاربة المستعمرين له في كل امة يستعمرونها . ودليل آخر ، محاربة الرجعيين له ، والمستحوذين

على السلطان من كل نوع ، في الامة الواحدة. ان ذوي السلطان اذا لم يعصمهم الله ، يخشون الشعوب ، ويخشونها متعلمة . وهم يحاربون التعليم علانية ، ان استطاعوا ، ولكن اكثرهم يحاربونه خفية . وانظر لبعض الامم العربية لارى كم بها من تعليم فلا اكاد اجد . وانظر لبعضها الآخر لارى من اي وقت في التعليم بدأت ، والى اي شيء قد انتهت ، فأقف واعجب . ان التعليم قد يتخذ في تخذيله احسن الدعوات ، ومن هذه الدعوة الى الروية ، فالى البطء ، لان بغيرهما لا يكون احسان . ان شر ما يخشاه الرجعيون ، واهل السلطان ، من التعليم ان التعليم يأبى الجوع ويأبى العري ، ويأبى العمل الا مأجوراً أحسن الاجر وتتفتح عينه بالذي يصيبها من نور ، وتتفتح نفسه للطيبات .

ان التعليم عندي مفتاح كل مغلق من مغالق الحياة ، في شرقنا هذا العربي . ولو اني خيّرت بين اشياء كثيرة يعطاها العرب ، ما اخترت المال ، ولا اخترت الاستقلال ، ولاخترت التعليم يشمل ويعم ، فهو الوسيلة الى المال ، وهو الوسيلة الى الاستقلال ، وهو الوسيلة الى فتح كل باب مغلق يندفق منه الخير كثيراً وفيراً .

المدنية وشؤونه من الحياة الاخرى

بقيت اشياء اخرى من اشياء هذه المدنية الحاضرة ، تتعلق بأسلوب العيش : اسلوب الغذاء ، واسلوب الكساء ، وما شاكل ذلك . فهذه اشياء لا تقدّم كثيراً ، ولا تؤخر كثيراً ، وللعربي ان يأخذ منها او يدع . واشياء اخرى تتعلق بالطباع والعادات وهذه

ما لا تستطيع المدنية ان تفعل فيه شيئاً .

معارضة المدنية الحاضرة

وختاماً، هذه هي المدنية الحاضرة، وهذه اصولها. هذه هي المدنية التي اكره ان اسميها غربية لانها مدنيـة انسانية ، هدفت لا الى اسعاد غرب دون شرق ، ولكن الى اسعاد الانسان اينما كان . وهدفت الى تعريف حقوق الفرد والجماعات ، والى تعيين الحقوق والواجبات ، في اي قوم وبأي ارض . وهي مدنية ، رغم بـدء نشأتها في الغرب ، لم تصطبغ كثيراً بصبغة دينها الغالب. واكثر مفكريها ، السابقين واللاحقين ، وقفوا بعيداً عن الدين ، تعمداً وقصداً ، وهم يفكرون .

والمدنية الحاضرة ، ككل المدنيات، لها محاسن ومقابح. وقد تركزت على محاسنها ، وتركت القبيح . لان القبيح قبيح في كل فكر وكل عصر ، وقد تتسم المدنية بقبيح لا ترضاه ، ولكنه يتعلق باذيالها فتحمله معها فيما تحمل من طبائع الناس .

ومن اهل الشرق من يتصلب عوده تعصباً كلما سمع بالمدنية الغربية . وحق له ان يتعصب . لان الشرق شقيَ بالغرب اكبر شقاء ، ولا يزال يشقى . وسوف يشقى .

ولكن الشرق ان شقي باهل الغرب فهو لم يشق بمدنيتهم. انه شقي بالذي في طبائع ابناء آدم من اثرة ومن ظلم ومن اجحاف ، واحياناً من سفه وغباء . وهو قد شقي بهذه الطبائع في عقرداره ، ومن اهله وعشيرته واهل السلطان فيه ، فكيف بالغرباء. والشرق

ينسى ان هذه المدنية تجربة يُمتحن بها اهلها، كما يمتحن مقتبسوها، وان اهل الغرب في محنة منها، بالذي تأتي به من ضائقات وأزمات، ومن حروب، لانها مدنية لم تبلغ بعدُ الغاية منها، وبعض اهدافها قد تحقق، وسائر أهدافها ينتظر التحقيق.

ومن اهل الشرق من تبلغ به كراهة الغرب الى حد ان يرى ان يقاوم الغرب، لا ظلمه واجحافه، واستبداده واستعباده، ولكن ان يقاومه كذلك فكرةً ومدنية. وهيهات. ان المدنيات القديمة اخذ بعضها من بعض، اذا تعادلا قوة، وقام بعضها على انقاض بعض. ولم يكن في تلك الازمان من تقارب الناس واتصالهم كما بين اهل الارض اليوم من قرب اتصال. ان الطائرة، وهي تطوف حول الارض اليوم، تكاد تجاري الشمس سرعةَ التفاف حول الارض. فكيف يقاوم الشرق العربي، على ضعفه، مدنية عارمة واقعة تحت عينه وعند سمعه، واخبارها اسرع اليه من بعض اخبار قومه.

ومالي اقول في هذا، والواقع يقول عني فيغني.

اليست المدنية قد وصلت الى ابعد ما خال المرء ان تصل، الى الصحراء. الا يوجد في صحاري العرب اليوم بقاع تحلها، فتحسب انك حللت بحلولها من المدنية في الصميم؟ وفي المدن، في بعضها، الست تلقى المرأة محجبة من قمة رأسها الى قدمها، تنظر الى الدنيا من ثقوب، فاذا خلعت ذلك الحجاب تجلت لك من تحته آخر ازياء باريس؟ وفي مدن الشرق العامة، هل تركت هذه المدن شيئاً من المدنية لم تأخذه عنها، من اسلوب بناء، الى نظام

مصارف ، الى برامج مدارس ، الى قوانين حكم .

ان المدنية الحاضرة فيضٌ غمر لا يقف في سبيله شيء الا اقتلعه . وهل عندنا نحن اهل الشرق العربي ما نستطيع ان نقيمه في سبيل هذه المدنية حتى ليقلع ؟ ولست اقول هذا عن تخاذل ، ولا اقوله عن تسليم ، ولكن اقوله لاني ارى ان اية مقاومة مجهودٌ ضائع ، لا يكون منه الا تأخير اليوم الذي ينتفع فيه الشرق بما انتج الغرب ، لا من مدنية غربية ، ولكن من مدنية انسانية عالمية اساسها تحرر الفكر الانساني من قيوده ، وغايتها رفاهة الانسان واسعاده ، وليس بها ما لا يمكن تأليفه ومطالب الشرق ودينه وعاداته . والمقاومة يكون بديلًا منها المساهمة ، المساهمة في صياغة طرق الحياة لاجيال من الارض مقبلة .

التشريع الاسلامي والمجتمع الحديث

للدكتور صبحي محمصاني

•

الاسلام والمسلمون

ان الاسلام دين وايمان ، وشريعة ونظام . وان اركان الاسلام وتعاليمه سلسلة متينة من القواعد ، التي تشمل امور المسلم ، في علاقته بربه وبنفسه وفي معاملاته مع اخيه الانسان . فهي تحوي احكام التوحيد والعقيدة ، وامور الآخرة وامور الحياة الدنيا جميعاً . فاذن ، الاسلام دين وايمان ، وشريعة ونظام .

ومن المؤلم المؤسف ، ان بعض الناس لم يفهموا حقيقة الاسلام فهماً كافياً . فبعض المسلمين اهملوا ذلك في الماضي ، عن تقليد وتحجر وانغماس في الترف ، فكان اهمالهم سبب انحطاطهم وجمودهم ، وسبب خرابهم ودمارهم .

وبعض المسلمين اليوم ايضاً اهملوا فهم حقيقة الاسلام ، عن جهل او تقصير . فمن باب اولى ان لا يفهمه على حقيقته بعض المستشرقين اوبعض مدعي الاستشراق ، عن جهل باللغة العربية او بمراجع الشرع الاصلية ، او عن تحيز سياسي او تعصب ديني .

فاذن ، الجهل والتغرض هما السببان اللذان طمسا احياناً حقائق التعاليم الاسلامية ، فأخرجاها بمظهر الجمود والتأخر . وهكذا ، كان لا بد من التنبيه الى ان الاسلام ليس معناه دائماً ما اتبعه المسلمون في وقت من الاوقات ، ولا ما يتبعه بعض المسلمين اليوم . انما الاسلام هو ما ينبغي على المسلمين اتباعه ، وفاقاً لنصوصه المقدسة ، وتعاليمه السامية ، ومعانيه الاساسية . فاذن الاسلام شيء ، وما يتبعه بعض المسلمين شيء آخر .

ثم ، لا بد لنا من التصريح بهذه الحقيقة الراهنة ، التي ينبغي لنا ان نتفهمها فهماً عملياً واقعياً . وهي ان المسلمين اليوم في زمن لا يمكنهم فيه ، كما لا يمكن لغيرهم ، ان يعيشوا منعزلين منفردين . فهم على مفترق حاسم من الطرق . فاما ان يتعمقوا في دراسة تعاليم الاسلام ، ويفهموها على حقيقتها ، ويتشربوا روحها ومعناها ، وينهضوا من سباتهم ليسايروا المدنية ، ويتعاونوا والامم المتمدنة ، تعاونا مبنياً على اساس المساواة والاحترام المتبادل ...

وإما ان يصبح المسلمون كما اصبح بعضهم متأخرين جامدين جاهلين . فيكون مصيرهم الفناء لا سمح الله ، او البقاء على ما يشبه الفناء ، وعلى ما يجره كل ذلك من ضرر عليهم وعلى الاسلام .

فأي طريق نتبع ؟ انأخذ بطريق الظلام والذل والانحطاط ، ام نأخذ بطريق النور والتطور والحياة ؟ ايجوز ان يكون الملايين من المسلمين بحالة جهل ، وما يستتبعه الجهل من فقر ومرض وإهمال ، على حين ان الاسلام جعل العلم من فرائضه الواجبة على المسلمين والمسلمات ، وامر بطلب العلم ولو في الصين ؟ نعم ولو

في الصين ، في تلك الايام التي كانت الصين فيها مثالا للبعد ونهاية للأسفار .

فاذن ، اذا اراد المسلمون ان ينتسبوا عن حق الى الاسلام ، فينبغي لهم قبل ذلك ان يتبعوا تعاليمه الصادقة . وعندئذ يحكم العالم والتاريخ على الاسلام حكمهما الصائب .

ايها السيدات والسادة !

اني لا اريد في هذه المناسبة ان ابشر بالاسلام ولا ان اناصر ، ولا ان اتباهى او افاخر . ولكني في بحث التشريع الاسلامي والمجتمع الحديث ، اوَدّ ان احصر بحثي في ناحية تعاليم الاسلام الحقيقية ، وان كانت هذه تختلف عما يتبعه بعض المسلمين في الواقع .

واني منذ البداية ، الفتُ نظر هذا الحفل الكريم بوجه خاص ، واكرر لفتَ النظر ، الى ان ما سأقوله اليوم انما هو قول النصوص الاسلامية وقول بعض رجال المسلمين الذين فهموا الاسلام والنصوص على معناها القويم ، وفسروها تفسيراً يتلاءم والحياة الاجتماعية ، في جميع ادوارها واطوارها الزمنية والمكانية . واني على كل حال ، سأستشهد بأقوال رجال السلف الصالح ، مع بعض حججهم ، على قدر ما يسمح به المقام . فمن رأى رأيهم وصوّبه ، كان له ولهم الفضل والثواب ، ومن خالفهم فهو حر في ذلك ، شرط ان يدرس حججهم ويمحصها ويأتينا بحجج صحيحه تدفع حججهم . فأمانة العلم تقتضي ذلك ، ولا تقبل القول المجرد . وما رائدنا جميعاً الا تحري الحقيقة والصواب .

فموضوعنا الآن هو : هل ان التشريع الاسلامي تشريع وجد

لزمان معين او لمكان محدود او لاحوال محصورة ، وانه من ثم محكوم عليه بالجمود كما ادعى بعض الجهلة ؟ ام انه تشريع مرن عام ، يلائم كل زمان ومكان ، ويساير كل مدنية وتطور ؟ هذا هو السؤال . والجواب عنه بلا ريب هو الثاني . فالتشريع الاسلامي شامل خالد حيوي ، يصلح للمجتمع الحديث ولكل مجتمع . ومن عوامل ذلك وادلته إباحةُ الاجتهاد وتعددُ المذاهب ، والمزاجُ بين العدل والاحسان وقاعدةُ تغير الاحكام . ولا بد من ايضاح كل من هذه العوامل والادلة المهمة ، التي هي عماد الشريعة الاسلامية جميعاً .

الاجتهاد والحركات الفكرية

فمن الادلة الاولى على حيوية التشريع الاسلامي ما نراه في تاريخه من حركات فكرية ، لا بل من ثورات اصلاحية ، قام بها الخلفاء والفقهاء ورجال الدين انفسهم ، ضد الجمود والركود .

معلوم ، ايها السيدات والسادة ، ان التشريع الاسلامي تشريع ديني مبنيٌ في اساسه على كلامِ اللهِ تعالى في كتابه القرآنِ الكريم ، وعلى سنة نبيه محمدٍ صلى الله عليه وسلم . ولكن بعد وفاة النبي (ص) ، لا سيما بعد الفتوحات الاسلامية ، حدثت قضايا جديدةٌ لم يكن فيها نصٌ لا في القرآن ولا في السنة . فاضطر الفقهاء الى الاجتهاد فيها ، واعطائها الحكمَ الشرعيَّ المناسب . فانْ كانت القضية الطارئةُ شبيهةً بقضية سابقة ، بسبب جامع العلة الواحدة بينهما ، اعطيَ لها نفسُ الحكم قياسا . والا اضطر الفقهاء

الى التداول والاجماع على الحـــل الشرعي . ولذا اصبحت ادلة التشريع المقبولة عند جمهور الفقهاء اربعة وهي : الكتاب والسنة والقياس والاجماع .

فاذن ، كان الاجتهـــاد الوسيلةَ الاولى في تاريخ التشريع الاسلامي لاجل اظهار حيويته . ودليل ذلك انه بعد ان توقف ازدهار المدنية الاسلامية منذ اواخر الدولة العباسية ،وبعد سقوط بغداد في اواسط القرن السابع للهجرة (اي الثالث عشر للميلاد) اجمع الفقهاء السنيون على الاكتفاء بالمذاهب السنية الاربعة المعروفة ، اي المذهب الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي ، واجمعوا من ثم على سد باب الاجتهاد خوفا من الاضطهاد . وكانت نتيجة ذلك تفشي التقليد ، وكثرة البدع المبنية على الوهم والجهل ، وانتشار الخرافات السخيفة ، والتمسك بالامور التافهة ، حتى قـال بعضهم إن تعلم اللغات الاجنبية او الاكل بالملعقة او الاخذ باي مظهر من المظاهر التي لم يعرفها المتقدمون ، كل ذلك حرام ومحرم . وبكلمة اخرى ، كان وقتٌ تفشى فيه التقليد بكل مسألة من مسائل الحيـاة ، فافتى المقلدون بان كل تغيير فيها حرام . وهكذا ، ارادوا ان يقضوا على المسلمين بالبقاء كما كان الاقدمون ، وان يقضوا على سنة النشوء والارتقاء ، وعلى كل تطور ومدنية . وهكذا ايضا ، كان من حق بعض الاجانب ان ينظروا الى هذه الحالة ، وان يزعموا ان الشريعة الغراءَ جامدةٌ لا سمح الله وانهـــا لا تتماشى والحضارة الجديدة .

فاذن ، الاجتهاد كان اولَ دليلٍ على حيوية الشرع الاسلامي ،

والتقليد كان اولَ مرض اصابه ومنعه من اظهار حيويته. ومرنته. ففي عصر الاجتهاد نشأت المذاهب الاسلامية المتعددة، وفي عصر التقليد قضي على كل تفكير وتدقيق.

وان التاريخ الاسلاميّ حافلٌ بالشواهد على ذلك. ففي ايام الخليفةِ عمرَ بنِ الخطاب، بدأ تأسيس الدولةِ الاسلامية، وكثرت الفتوحات، وظهرت حاجاتٌ جديدة، اقتضت تغييراً في بعض الاحكام والفتاوى. فان عمرَ الفاروق المشهور بعدله وسهره على مصالح الرعية، والمشهورَ ايضا بتقواه وبصلاحه، ان عمرَ اخذ يفسر الاحكام والنصوص حسب روحها، ووفاقا لحاجات الزمن، واقتضاءً لمصلحة المسلمين وللسياسة الشرعيةِ.

وكذلك أخذ مؤسسو المذاهب يعملون في الاجتهاد، ويدرسون الشريعة على اساس علمي. فاثبتوا أن الاحكام الشرعية مبنية على علل واسباب، وأن هذه العلل والاسباب جميعها عائدة لمصالح الناس. وقامت طائفة منهم، وعلى رأسها الامام الأعظم ابو حنيفة النعمان، واسسوا مدرسة اهل الرأي، تلك المدرسة التي دققت في صحة الاحاديث وحكمت العقل والاستدلال المنطقي في تفسير النصوص وفي تطبيقها حسب معناها الحقيقي. فقد روي عن ابي حنيفة رحمه الله انه قـــال: «اذا لم يكن في كتاب الله ولا في سنة رسوله نظرتُ في اقاويل اصحابه، ولا اخرج عن قولهم الى قول غيرهم. فاذا انتهى الامر الى ابرهيم والشعبي وابن سيرين والحسن وعطاء وسعيد بن جبير، فقومٌ اجتهدوا، فأجتهد كما اجتهدوا»

وظـــلّ الفقه مزدهراً ما بقي الاجتهاد مفتوحاً. ثم لم يرجع

الى ازدهاره ، الا بعد ان عاد الاجتهاد الى سابق عهده بظهور الحركات الفكرية الاصلاحية . فهذه الحركات اثبتت ان الاجتهاد واجب على المسلمين ، وان التقليد الاعمى حرام . فالاجتهاد كان الواسطة لاستنباط الاحكام من ادلة الشريعة المنقولة ، كالكتاب والسنة ، او من ادلتها المعقولة كالقياس والاستحسان ، وكان الوسيلة لاعطاء الاحكام الشرعية المدى الذي تطلبته المعاملات المستحدثة والحاجات الاجتماعية الجديدة ، فكان الاجتهاد لذلك عاملاً ضرورياً في تاريخ نشوء التشريع .

وقد بدأت النهضة الفكرية الشرعية العصرية في القرنين السابع والثامن للهجرة (اي الثالث عشر والرابع عشر للميلاد) . واشهر من قام بها الامام الحنبلي تقي الدين احمد بن تيمية صاحب الفتاوى المشهورة وصاحب مجموعة الرسائل الكبرى ورسالة معارج الاصول ومنهاج السنة وغيرها ، ثم تلميذه ابو عبد الله بن بكر الزرعي الدمشقي المعروف بابن قيم الجوزية مؤلف كتاب اعلام الموقعين عن رب العالمين ، والطرق الحكمية في السياسة الشرعية ، وزاد المعاد في هدي خير العباد وغيرها . وقد جدد هـذان وامثالهما دراسة المذهب الحنبلي على ضوء النقل والعقل . واشتهروا بالاجتهاد وبعدم التمسك بالقياس .

وقد اتى اجتهادهم مبنياً على نصوص الشرع الاصلية الصافية المجردة عن الزيادات الاجتهادية القديمة . فجاء اجتهـاداً يوافق النظريات العصرية ان لم يكن يمتاز عليها في كثير من المسائل ، ومن ذلك ما جاهر بـه ابن القيم من نظريات ، كمحاربة التقليد

والجمود ، واعتمادِ القصد في التصرفات ، وحرية التعاقد ، ومنع الحيل في الاحكام ، واحياء اعمال الفضولي المحسن ، والمحافظة على حقوق الغرماء ،والتوسع في اصول البينات كقبول شهادة الشاهد الواحد العدل ، وعدم تجزئة الاقرار وما اشبه من النظريات التي يعرفها رجال القانون اليوم .

ثم قام في القرن الثاني عشر للهجرة (الثامن عشر للميلاد) الامام محمد بن عبد الوهاب بحركته الاصلاحية الوهابية في نجد ، وكان من مجددي المذهب الحنبلي بعد ابن تيمية وابن قيم الجوزية ، ومن القائلين بالدعوة السلفية ، التي ترجع في اصول الدين الى القرآن الكريم والسنة الصحيحة ، وتحارب التقليد الاعمى «الذي قتل في الامة الاسلامية التفكير الجدي ... وقتل فيها روح الاستقلال ... واطفأ فيها جذوة النشاط » ، تلك الدعوة التي تنبذ ما كان من جراء ذلك من التعلق بالشروح والمتون والآراء والاهواء ، وما كان من البدع الدينية كتقديس القباب وعبادة القبور والرقص وقرع الطبول ، وما الى ذلك مما يتنافى وروح الاسلام الحقيقية .

ومن الطبيعي ان يثور الجهل على كل جديد وعلى كل اجتهاد وعلى كل ما خالف التقليد والتقاليد ، فقد اضطهد اولئك المصلحون اضطهاداً كبيراً ، حتى ان ابن تيمية وابن القيم قد سجنا في قلعة دمشق ومات ابن تيمية وهو في السجن .

وهكذا نرى ان الدعوة السلفية اومذهب السلف الصالح هي الدعوة التي ترجع في اصول الشريعة الى القرآن الكريم والسنة

الصحيحة وتنبذ التمسك بمذهب من المذاهب او برأي من الآراء، او باجتهاد من الاجتهادات . وقد تابع هذه الدعوة في القرن التاسع عشر السيد جمال الدين الافغاني وتلميذه الامام الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية رحمهما الله ، وهذان نشرا مبادئها وتعاليمها في مجلة العروة الوثقى في باريس ، ومجلة المنار في مصر ، وفي كتب ورسائل ومحاضرات عديدة. وقد ذهب هذان المصلحان وتلامذتهما من بعدهما الى محاربة الجمود والخرافات والبدع ، والثورة على كل تقليد اعمى ، لان « المقلدين من كل امة – كما جاء في عبارة العروة الوثقى – المنتحلين اطوار غيرها يكون فيها منافذ وكوى لتطرّق الاعداء اليها ، وتكون مدارکهم مهابط الوساوس ومخازن الدسائس » فاذن ، التقليد الاعمى الجامد لا يضر الدين فحسب ، بل هو مرض يفتك بكرامة الامة وباستقلالها .

وفوق هذا يرى اتباع مذهب السلفية لزوم توحيد المذاهب الاسلامية المختلفة وعدم التقيد بمذهب واحد ، لانه ، كما قالوا ، « لن يستطيع شعب اسلامي ان يتحمل اثقال تقليد المقلدين لمذهب واحد ، ولا ان يجعلوا مصالحهم الزوجية والمنزلية والمالية منوطة بفهمهم لكتب مذهب واحد في عسره ويسره». فالشريعة الاسلامية ليست مذهباً بل هي مجموع المذاهب من دون تقييد او تضييق .

وهكذا ، نحن نرى على الجملة ، ان الاجتهاد كان ولا يزال العامل الاول لحيوية الشرع الاسلامي ، ثم يأتي بعد هذا العامل ما نتج عنه من تعدد المذاهب الفقهية .

تعدد المذاهب الفقهية

فتعدد المذاهب إذن كان نتيجة لاباحة ، لا بـل لواجب ، الاجتهاد في الشرع الاسلامي . ومن الامور الظاهرة في تعدد المذاهب الفقهية الاسلامية ان الطريقة التي اتبعها الفقهـــاء في اجتهادهم واستدلالهم هي الطريقة التحليلية فيما يتعلق بالنصوص ، وهي الطريقة الاستقرائية فيما لا نص عليه . اي ان الفقهاء كانوا يأخذون النص كقاعدة ، ثم يفسرونه ويحللونه ، ويستخرجون منه النتائج والفروع . اما اذا لم يكن من نص في المسألة ، فانهم كانوا حذرين يقظين ، خائفين في البدء من وضع القواعد العامة ، لئلا يصطدموا بالنصوص المقدسة . فـكانوا يدرسون القضية التي تعرض عليهم او التي كانوا يستعرضونها اثناء ابحاثهم ، ويجتهدون في استنباط الحل اللازم بالقياس او بالاجماع او بغير ذلك من الادلة الشرعية . فـكان اجتهادهم مبنياً على الاستقراء والخبرة ، وعلى التأني والحذر . وهـذا يفسر لنا السبب في ان الفقهاء المسلمين بوجـه عام درسوا نظرية الجرم ونظرية العقد في ابواب الجرائم والعقود المختلفة . ولكن هـذا لم يمنع المتأخرين منهم عن استخلاص القواعـد الحقوقيـة الاساسية ، ودرسها درساً علمياً مستفيضاً .

وعلى الاجمال ، لم يكن الخلاف بين المذاهب المختلفة خلافاً على المبـادىء والتعاليم الاساسية ، بل كان بوجه عام واقعاً على الفروع ، بمناسبة تطبيق المبادىء على القضايا العملية . فاذن ،

بوجه عام ، يعتبر اختلاف المذاهب شبيهاً باختلاف المحاكم اليوم ، في تفسير بعض النصوص او القواعد ، عند تطبيقها على الدعاوى المعروضة عليها . او بكلمة ثانية ، اختلاف المذاهب هو اختلاف في تطبيق القاعدة على القضايا العملية ، كاختلاف المحاكم اليوم في اجتهادها القضائي . واني اقول ذلك بوجـــه عام ، لانه في بعض المستثنيات القليلة ، كان الاختلاف واقعاً على المبادىء ايضاً .

واني اورد مثلا على ذلك لنرى نوع الخلاف في هـذا الامر . لقد اتفق الفقهاء على ان غاصب الشيء يلزمه ان يردّه الى صاحبه عيناً . واذا استهلك الغـاصب الشيء ، او تلف او ضاع ، كان عليه اعطاء مثله ، ان أمكن ، والا اعطاء قيمته . هذا لا خلاف عليه بين الفقهاء . ولكن لما كانت قيم الاسعار تتقلب مع الزمان والامكنة ، وجب تحديد الوقت والمكان اللذين يُنظر اليهما عند تعيين قيمة المغصوب . فقال الحنفيون انه يُنظر في ذلك الى زمان حصول الغصب ومكانه . وقـــال الحنبليون انه يُنظر الى وقت حصول التلف ومكانه . اما في المذهب الشافعي ، فيضمن الغاصب المغصوب باقصى قيمته من وقت الغصب الى وقت التلف . هذا مثل عن اختلاف المذاهب . فالجميع متفقون على ان الغاصب يلزمه دفع القيمة ، ولكنهم اختلفوا على التفصيلات المتعلقة بطريقـــة تقدير هذه القيمة ليس إلا .

وقد ابتدأ الخلاف بين المذاهب الاسلامية في تفسير بعض آيات القرآن الكريم ، ثم في تفسير السنة ، وفي طرق التحقيق عنهـــا وشروط قبولها ، ثم ازداد هذا الخلاف في الاجماع والقياس ، إذ

ان بعض المذاهب رفضتها او تشددت في قبولها .

وكذلك حصل الخلاف بين المذاهب ايضاً بشأن بعض الأدلة الاخرى. فالمذهب الحنفي مثلاً قبِلَ بالاستحسان كدليل خامس، والمذهب المالكي اخذ بدليل المصالح المرسلة ، والمذهب الشافعي اخذ بالاستدلال او استصحاب الحال، وهكذا، كما سنوضح قريباً.

وعلى الرغم من ذلك ، فقد كان بين الفقهاء المختلفين مناظرات ومجادلات ، ومطالعات ، ومصنفات . وكان بينهم تأثير متبادل، حتى ان آراء المذاهب المختلفة قد تشابكت احيانا، ولم يبق اختلاف المذاهب صارماً واضحاً . ففي كثير من المسائل مثلا ، نرى تلامذة ابي حنيفة يخالفونه، ويتبعون اجتهاداً موافقاً لاجتهاد باقي ائمة المذاهب ، كما نرى مثلا في مسألة جواز الحجر على السفيه ، اي المبذر ، فقد قال ابو حنيفة بعدم جواز الحجر عليه وقال تلاميذه وباقي ائمة المذاهب بجواز ذلك .

وعلى كل ، فقد كان اختلاف المذاهب من اسباب مرونة الشريعة الاسلامية وتطورها ، ومن اسباب التيسير على الناس ، حتى قيل، كما جاء في عنوان كتاب الدمشقي: « رحمة الامة في اختلاف الأئمة » . فالدولة العثمانية مثلا كانت تطبق المذهب الحنفي في القضاء والفتيا . ولكنها ، رغم ذلك ، اخذت ببعض المذاهب الاخرى في كثير من المسائل : ففي المذهب الحنفي مثلاً يعتبر الطلاق نافذاً اذا صدر عن رجل سكران ، او على اثر الاكراه. ولكن هذا الحكم وُجد فيه حرجٌ كبير وضررٌ على الناس ، لذلك اخذت الدولة في قانون العائلة العثماني (الذي يطبق اليوم

على السنيين في لبنان) بقول الشافعي ، واعتبرت أن مثلَ ذلك الطلاق غيرُ معتبر ، لان السكرانَ والمكرهَ لا نية لهما ، ولان النيةَ هي ركن التصرفات الشرعية جميعاً .

وان الفقهاء المسلمين قد تركوا في المذاهب الاسلامية المختلفة كنوزاً فكرية ثمينة ، كانت ثمرةَ الجهود الجبارة ، التي قاموا بها في هذا العلم وزبدةَ الافكار القيمة التي تركوها . وقد نتج عن اختلاف المذاهب تعددٌ في النظريات ، بحيث نجد فيها ما يشابه معظمَ احكام القوانين العصرية ، ومن ثم ، نرى أن البلاد الاسلامية بامكانها إذا ارادت اقتباس بعض القوانين العصرية ، تمشياً مع حاجات الزمن ، أن ترجع الى المذاهب الاسلامية المختلفة ، فتجد فيها ما يوافق تلك القوانين العصرية ، او ما يقرب منها ، فتعددُ المذاهب ، اذن ، كان من اسباب مرونة الشريعة الاسلامية ومن اسباب قابليتها للتطور مع المجتمع الحديث .

وكما ان تعددَ المذاهب كان نتيجة للاجتهاد ، فكذلك كان هو ايضاً سبباً لتعدد ادلة التشريع ، وتوسيع نطاق احكامه ، ومن ثم لزيادة مرونة هذه الاحكام .

التوسع فى الادلة وتأثير العمل المطلق

فنحن اذن نصل الآن الى سبب ثالث من اسباب مرونة الشريعة الاسلامية . وهو تعددُ ادلة الاحكام ، وتوسعُ المذاهب في تقبّل مصادر جديدة للتشريع ، كالاستحسان عند الحنفيين ، والمصالح المرسلة عند المالكيين ، على ما سنوضح قريباً .

وكل هذه الادلة الجديدة راجعة الى الرأي وإعمال العقل ، واتباع العرف والعادة ، والى درس علل الاحكام ، واتباع ما تقتضيه مصلحة الناس في حياتهم الاجتماعية ، « ومراعاة اقرب الاشياء الى الخير المطلق » ، وما يوحيه العدل والانصاف .

فالعدل الحقيقي والانصاف هما اساس التشريع الاسلامي ، لانه تشريع شامل ، يضم بين أحكامه قواعد الدين والاخلاق وقواعد المعاملات الاقتصادية ، فكان طبيعياً أن تتشابك هذه الاحكام فيما بينها ، ويتأثر بعضها بالبعض الآخر . وكان طبيعياً ايضاً أن تتأصل هذه الاحكام في النفوس ويقوى احترامها ، على ما في مراعاتها من محافظة على مرضاة الله والعباد .

فلهذا كله ، جُمع العدل والاحسان في آية واحدة ، هي : « إن الله يأمر بالعدل والاحسان » ، وسار الاثنان معاً حتى اصبحا بمنزلة المترادفين ، وصار من العدل ان لا يضر المرء اخاه ، وأن لا يحب له الا ما يحبُ لنفسه ، وصار من واجبات المعاملات الامانة والنصيحة والصدق . وكان من توابع استيفاء الحقوق الاحسان والمسامحة والامهال .

وكذلك ، بنى الفقهاءُ على هذا المزيج بين العدل والاحسان نظرية سوء استعمال الحقوق ، ونظرية مكافأة الفضولي في بعض الاحوال وفاقاً للآية الكريمة «هل جزاءُ الاحسان الا الاحسان» ووفاقاً للحديث الشريف « من اسدى اليكم معروفاً فكافئوه » . وبنوا عليه ايضاً تقوية الاحكام القضائية بما توجبه الديانة ، حتى صار التفريق في الحكم قضاء والحكم ديانة شبيهاً بتفريق علماء

القانون اليوم بين الموجبات المدنية والموجبات الطبيعية ، وصار هذا التفريق رقيباً على استعمال حقوق الانسان، مثاله: قال الفقهاء اذا جاز للرجل ان يطلق امرأته قضاءً فيجب ليصح الطلاق ديانة ان يكون مستنداً الى مبررٍ وجيه ، والا كان دليلاً على الحمق ، وكفراً بنعمة الزواج المبنية على المودة والرحمة .

ثم ان الفقهاء اتخذوا من مبادىء العدل والانصاف مصدراً للتشريع ، اسماه الحنفيون الاستحسان واسماه المالكيون المصالح المرسلة . ونحن ، دون ان ندخل في تفصيلات علم الاصول ، نثبت ان هذه الادلة الجديدة كانت وسيلة لادخال كثير من الاحكام المبنية على العرف والعادة والضرورة ، والتي كانت مخالفة للقياس وللاجماع . وكذلك لم يتورع الفقهاء، لا سيما الحنفية، من الالتجاء الى الحيل الشرعية لاجل التهرب من تطبيق بعض الاحكام، ولاجل السعي للتقريب بين تلك الاحكام وبين ضرورات الحياة الاجتماعية الجديدة .

فالخلاصة أن توسع الفقهاء في كل هذه المصادر والادلة كان نتيجة للاجتهاد ولتعدد المذاهب ، وكان سبباً آخر لمرونة التشريع الاسلامي ، ولتعديل بعض احكامه وفاقاً لتطورات المجتمع . وان كل هذه الاسباب ، من اجتهادٍ او تعددٍ في المذاهب ، او توسع في ادلة التشريع ، او سعي وراء العدل المطلق ، ان كل هذه الاسباب ادت الى قاعدة اساسية من قواعد التشريع الاسلامي ، وهي قاعدة تغير الاحكام . واننا نوضح هذه القاعدة المهمة ايضاحاً وجيزاً .

تغير الاحكام

قال ابن خلدون في مقدمته : « ان احوال العـــالم والامم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر . انما هو اختلاف على الايام والازمنة ، وانتقالٌ من حال الى حال . وكما يكون ذلك في الاشخاص والاوقات والامصار ، فكذلك يقع في الآفاق والاقطار ، والازمنة والدول ، سنة الله التي قـد خلت في عباده » .

وان هـــذه الحقيقة الاجتماعية تستتبع بلا مراء تبدل مصالح الناس بتبدل مظاهر المجتمع . ولما كانت مصالح العباد اساس شريعة المعاملات ، كان من اللازم ان تتبدل الاحكام الشرعية وفق تبدل الزمان ، وان تتأثر بمظاهر المحيط والبيئة الاجتماعية ، مع مراعاة حكمة الشريعة السمحة ونصوصها .

وان الفقهاء قد اخذوا بهذه القاعدة . فاثبتها كتاب المجامع ومجلة الاحكام العدلية بقولها : « لا يُنكر تغير الاحـــكام بتغير الازمان » . وهو قول يجب ان يزاد عليه تغير الامكنة والاحوال ، كما اوضح ابن قيم الجوزية وغيره من علماء الشرع والاجتماع .

ولاجل تطبيق هذه القاعدة على احكام الشريعة الاسلامية ، وجب التفريق اولاً بين قواعد العبادات وقواعد المعاملات الدنيوية . فقواعد الدين الاسلامي والاحكام المتعلقة بالعبادة قواعد ثابتة ، بعبارة الفقهاء ، « ما دامت الارض ارضاً والسماء سماء » ، لان اصول الدين وقواعد التوحيد والايمان والعقيدة كلها حقيقة ازلية

ابدية خالدة ، واحدة في جميع الامصار والاعصار .

اما اذا كان الامر يتعلق بقواعد المعاملات الدنيوية ، وجب ايضاً التفريق بين الاحكام المبنية على النصوص والاحكام المبنية على الاجتهاد . فالاحكام الشرعية المبنية على اجتهاد الفقهاء والتي لا نص عليها لا في القرآن الكريم ولا في السنة الشريفة ، فلا خلاف بين فقهاء المذاهب جميعاً على انها قابلة لاجتهاد مخالف ، ومن ثم قابلة للتعديل والتغيير وفق مصالح الناس وحاجاتهم ، ووفق ظروف المجتمع والمكان والزمان . وقد ذكر الفقهاء امثلة عديدة من تغيير الاحكام ، لا نرى مجالاً لذكرها لعدم وجود الخلاف بشأنها .

اما الخلاف بين الفقهاء فقد كان في مسألة تغيير احكام المعاملات الثابتة بالنصوص . فقد قال جمهور الفقهاء بانه لا تجوز مخالفة مثل هذه الاحكام الا في احوال الضرورة . ودليل الترخيص للضرورة الآيات الكريمة « وما جعل عليكم في الدين من حرج » . « فمن اضطر غير باغٍ ولا عادٍ فان الله غفور رحيم » . « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » ، ودليل الترخيص للضرورة ايضاً الاحاديث الشريفة « الدين يسرٌ . احب الدين عند الله الحنيفية السمحة » « يسروا ولا تعسروا ، بشروا ولا تنفروا » . وعلى هذا قال الغزالي رحمه الله : « جميع المحرمات تباح بالضرورة » ، وقال القاضي الحسين « المشقة تجلب التيسير » ، وجاء في القواعد الكلية الواردة في كتابي الاشباه والنظائر للسيوطي الشافعي ولابن نجيم الحنفي وفي مجلة الاحكام العدلية « الضرورات تبيح المحظورات » .

وان الامثلة على تطبيق هذه القاعدة عديدة لا حصر لها في كتب الفقه جميعاً .

فاذن ، لا خلاف على ان احكام الشريعة الثابتة بالنصوص لا تطبق في احوال الضرورة والمشقة . وقد روي عن الامام الشيخ محمد عبده رحمه الله انه سئل عمـــا اذا كان يجوز للمسلمين تعاطي معاملات المصارف والمصافق (اي البنوك والبورصات) من حسم واستدانة ودفع فائدة ، فقال لهم اذا كان المسلمون لا يمكنهم معاطاة التجارة واكتساب الرزق الا بالتعامل مع المصارف فذلك جائز لهم بالضرورة وعلى قدر الضرورة .

وعلى كل ، فالمسألة الخلافية بين الفقهاء كانت في جواز تغيير احكام المعاملات الثابتة بالنصوص في غير احوال الضرورة . ففي هذه الحالة ، قال جمهور الفقهاء بتحريم التغيير والتعديل . وقـال البعض بجواز ذلك في حالتين وهما : اولاً زوال علة الحكم الشرعي . وثانياً تغير العرف والعادة . واليكم شرح هاتين الحالتين مع بعض الامثلة عليها .

اولاً – زوال علة الحكم الشرعي .

ولاجل تفهم هذه المسألة ، لا بد لنا من الاشارة الى ان مسائل المعاملات في الشريعة الاسلامية ، وفي كل شريعة قديمة او حديثة ، مبنية على مقاصد معروفة ، وان هذه المقاصد تهدف الى جلب المنافع للناس ودرء المفاسد عنهم ، وان هذه العلل هي اساس الاحكام ، بحيث انـه اذا زالت العلل او تغيرت وجب زوال او تغيير ما بني عليها من الاحكام . فلذا قيل في القواعد الاصولية :

« ان الحكم الشرعي المبنيّ على علة يدور مع علته وجودا وعدما ». مثال ذلك جاء في الآية الكريمة « انما الصدقاتُ للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضةً من الله ». وان المؤلفة قلوبهم هم الذين كان النبي (ص) يعطيهم من الصدقات ليتألفهم على الاسلام لضعف ايمانهم ، او لدفع شرهم ، او لعلو منزلتهم في قومهم .

وعلى الرغم من هذا النص القرآني الصريح ، فقد الغى عمر بن الخطاب رضي الله عنه حصة المؤلفة قلوبهم من الصدقات . وردهم بقوله : « هـــذا شيء كان رسول الله يعطيكموه ليتألفكم على الاسلام ، والآن فقد اعزّ الله الاسلام واغنى عنكم ، فان ثَبَتُّمْ على الاسلام والا فبيننا وبينكم السيف . انا لا نعطي على الاسلام شيئاً ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » .

فهنا بني النص على عـــلة هي نصرة الدعوة الاسلامية في بدء الاسلام ، ولكن هذه العلة زالت بعد ان قويت شوكة الاسلام في ايام عمر بن الخطاب . لذا اعتبر ان الحكم الشرعي المبني على تلك العلة قد زال بزوالها . فهذا النص القرآني الصريح اعطاه ابن الخطاب تفسيرا جديداً ، وعدل الحكم المبنيّ عليه تعديلا يأتلف وحكمة التشريع ومقصد الشارع .

والحالة الثانية لتغيير الاحكام او تعديل تفسيرها عند بعض الفقهاء هي حالة تغير العرف والعادة . ومن امثلة ذلك ان العادة جرت في ايام النبي (ص) على تعيين البُر (اي الحنطة) والشعير بالكيل ، لذا جـاء في الحديث الشريف « البر بالبر كيلاً بكيل

والشعير بالشعير كيلاً بكيل » . ولكن هـذه العادة تغيرت في ايام قاضي قضاة بغداد ابي يوسف ، فاصبح الشعير والحنطة من الموزونات وصار التعامل على بيعهما بالوزن لا بالكيل . فهل ان هذه العادة المستحدثة مردودة لتعارضها مع النص ؟ وهـل ان عقود البيع المحررة على اعتبار هذه الاشياء من الموزونات باطلة ومحرمة ؟ كلا ولا شك ، وهذا ما افتى به ابو يوسف ، مستندا الى ان النص كان مبنيا على العادة وأنه يصح تفسيره تفسيراً مختلفا بحيث يتلاءم والعادة الجديدة . فهذا ولا شك تعديل ضمني للاحكام الشرعية المتعلقة بالمعاملات .

هذه بعض الامثلة من تغيير الاحكام ، وإن من نظائرها امثلة اخرى عديدة ذكرها الفقهاء في كتبهم وفتاويهم . وهي تستند الى سابقات واجتهادات معتبرة ، تعود الى بعض الخلفـاء المشهورين كعمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز ، والى بعض الائمة امثال ابي يوسف الحنفي ، وشمس الدين القرافي المالـكي ، ونجـم الدين الطوفي الحنبلي وغيرهم .

ولا بد من التنبيه الى أمر وهو أن مجال الخلاف بين الاراء المتباينة في مسألة تغير الاحكام المبنية على النصوص هو مجال يسير ، الان النصوص المتعلقة بالمعاملات قليلة جداً بالقياس الى النصوص المتعلقة بالعبادات . ومما يضيق هذا المجال ايضاً الملاحظـــات الاتيـــة وهي :

اولا ـ ان الاحكام المعرضة للتغيير والتعديل تتعلق بالجزئيات دون القواعد الكلية التي تبقى مبدئياً ثابتة واحدة في جميـــع

الامكنة والازمنة .

ثانياً ـ ان بعض النصوص التي نسبت الى السنة ليست منها بشيء. فقد كثر وضع الاحاديث الكاذبة في بعض عصور التاريخ الاسلامي ، خدمة للسياسة وتأييداً للحزبية ، او لغير ذلك من الاسباب . وهكذا رُويت احاديث سخيفة يأباها المنطق والعقل السليم . وبهذا صدق قول النبي (ص) « سيكون في آخر امتي اناسٌ يحدثونكم ما لم تسمعوا انتم ولا آباؤكم فاياكم واياهم . »

ومن امثلة الاحاديث الموضوعة : « الباذنجان شفاء من كل داء . الضب كان يهودياً عاقاً فمسخ ، الخنزير عطسة الفيل وما اشبه . »

ولا شك في أن وضع الاحاديث على هذه الصورة قد اساء الى الشريعة الاسلامية ، ولقد احسن ابو حنيفة وامثاله ، اذ لم يقبلوا الاحاديث الا بعد تمحيصها الدقيق على ضوء العقل والمنطق . ولقد صدق ابن تيمية بقوله : « ان صحيح المنقول (اي المنقول عن النبي) في الشرع الاسلامي موافق دائماً لصريح المعقول . » اي انه جعل العقل مقياساً لصحة النقل .

ثالثاً ـ ان بعض نصوص الحديث الصحيح التي تعود الى معايش الدنيا والتي ذكرها النبي (ص) على سبيل الرأي ليست واجبة الاتباع . ودليل ذلك ما رواه مسلم في صحيحه ان النبي (ص) مرّ بقوم يأبرون النخل فسأل « ما يصنع هؤلاء ؟ » . فقيل له إنهم يلقحون النخل . فقال : « لو لم يفعلوا لصلح » فاخبروا بقوله ، فتركوا التلقيح ، ولكن لم ينضج الثمر . فلما علم النبي

(ص) بذلك قال : « انما انا بشر ، اذا امرتكم بشيء من دينكم فخذوا به ، واذا امرتكم بشيء من رأيي فانما انا بشر .» « انتم اعلم بامر دنياكم » .

رابعاً - ان تطبيق قاعدة تغيير الاحكام لا يعني تغيير النصوص لا سمح الله . فالنصوص مقدسة لا يجوز مسها بحال من الاحوال . ولكن القصد من التغيير هو تغيير التفسير والاجتهاد لهذه النصوص ، على ضوء تغير العلل والعادات التي بنيت عليها .

فاذن ، نحن نرى أن ما زعمه بعض المستشرقين من ان الشريعة الاسلامية مقضيّ عليها بالجمود قول فاسد . فقد اثبتنا فيما مرّ اموراً نلخصها كما يلي :

اولاً - ان الاجتهاد واجب في الشريعة الاسلامية وان التقليد الاعمى محرم .

ثانياً - ان الشريعة الاسلامية ليست مذهباً واحداً ، بل هي مجموع المذاهب ، فعلى من اراد درسها وتفهمها وتطبيقها ان يأخذها بمجموعها وان يختار ما هو مناسب منها لروح الشريعة ولحاجات الناس والمجتمع .

ثالثاً - ان توسع الفقهاء في ادلة التشريع ومصادره والاخذ بمبادىء الانصاف المطلق بطريق الاستحسان والاستصلاح ، كل ذلك كان له اثر في جعل الشريعة الاسلامية من اعدل الشرائع واقربها الى المثل الاجتماعية العليا .

رابعاً - ان قاعدة تغير الاحكام تطبق في جميع المسائل التي لا يوجد فيها نص ، من القرآن او السنة ، وتطبق في المسائل القليلة

التي يوجد فيها نص وذلك بحالتين : الاولى اذا كان النص من نوع السنة العائدة الى معايش الدنيا ، والثانية بحال الضرورة والمشقة وذلك باجماع الفقهاء . اما في باقي الاحوال فيجوز ان تفسر النصوص تفسيراً جديداً عند بعض الفقهاء اذا كانت هذه النصوص مبنية على علةٍ قد زالت او على عادة قد تغيرت .

وعلى الاجمال ، نحن نرى من كل ما قدمنـــاه ان التشريع الاسلامي تشريع مرن قابل لان يكون تشريع كل زمان ومكان ولان يساير حاجات المدنية الطارئة واحوال المجتمع الحديث .

على أن هذه المرونة لا تعني ان الاصلاح والتغيير في دراسة احكام المعاملات في الشريعة الاسلامية جائزان بطريـق الثورة والتهور ، بل انما ينبغي ان يكون ذلك بطريق التطور التدريجي عن طريق الاجتهاد بواسطة من يتصفون بصفات المجتهد ، وان يكون ذلك بحيث تجري المحافظة على نصوص الشريعة المقدسة وعلى حكمتها السامية وتجري الموازنة بين اساسات هذه الشريعة الثابتة الخالدة ، وبين مقتضيات المجتمع الحديث .

المدرسة العربية

نشأتها، سيرها، واتجاهاتها

•

للاستاذ احمد سامح الخالدي

ان المتتبع لتاريخ التعليم عند العرب منذ فجر النهضة العربية عند ظهور حضرة صاحب الرسالة تتكشف له بعض حقائق كبرى نستطيع تلخيصها فيما يأتي :

اولاً – ان التعليم عند العرب كان منـــذ الدعوة الاسلامية جزءاً من المدنية العربية الاسلامية، وقد ظل كذلك طيلة القرون حـــتى يومنا هذا ، ولكنه كان يتطور حسب الزمان والمكان والعوامل السياسية والاجتماعية والحربية الخ ... في المـــادة والاسلوب ، وطراز المعمار وكتب التدريس والمعلمين وشروط الواقفين الخ ...

ثانياً – انه اي نظام التعليم كان يؤلف مجموعة من المؤسسات التعليمية العامة ترضخ لقوانين وانظمة واصول ، اشار الى بعضها ابن سحنون والقابسي ، وقد الفّت هذه المجموعة نظامـاً عاماً ، له صفات وميزات . وليس بضائر ان لا ينطبق هذا النظام عـلى

مقاييس العصر الحاضر . وكانت الدولة تشرف على هـذا النظام وتكيفه وتسيره ، تبعاً لاهداف معلومة وغايات مقصودة ، وكان هـذا النظام يشمل حلقات الدروس في المساجـد والمكاتب او الكتاتيب اي المدارس الابتدائيـة حسب عرف اليوم ، والبيوت (١) وبيوت الحكمة ودور العـلم ، فالمدارس وهي الكليات او الجامعات بعرف اليوم والمدراس (٢) ودور القرآن ، ودور الحديث ، ودور القرآن والحديث ، ودور الكتب او خزائن الكتب والزوايا والخانقاهات فالتـكايا ثم البيمارستانات والاستبارات ودور المرضى ودور الشفاء وبيوت المرضى وكان الطب يدرس فيها ، هذا بالاضافة الى مدارس الطب التي كان منها في دمشق والبصرة وبغداد ، وبعض المدارس الخاصة كمدارس النحو ومدارس المكفوفين والايتام . كما كان هنالك اربطة خاصة بالارامل والعوانس والمطلقات والمختلفات مع ازواجهن الى آخر ذلك من المؤسسات الاجتماعية التي كانت بالاضافة الى عملها الاجتماعي تقوم بتدريس الدين واللغة والفلسفة بل واللغة الاغريقية وبالتربية الروحية عن طريق التصوف والتجرد .

ثالثاً – وليس بصحيح ابداً ان هـذه المؤسسات كانت من عمل الافراد ، كما يدعي بعض من تعرضوا لدراسة هذه الناحية من تراث العرب الثقافي سواء من العرب او الافرنج . بـل الصحيح

---

(١) ورد ذكرها في اواخر المئة الاولى للهجرة في الاغاني ، ارشدني اليها الصديق العلامة جبرائيل جبور .

(٢) المدراس او المدرس هو البيت الذي يدرس فيه القرآن .

الثابت ان الكتاتيب وهي المدارس الابتدائية كانت حتى في العهد الاول، عهد الخلفاء الراشدين، تؤلف جزءاً من النظام التعليمي القائم وكان الخليفة يشرف عليها بنفسه . ولدينا نصوص تثبت ان ابا بكر فضلاً عن عمر ومن جاء بعدهما كانوا يُدخلون بانفسهم الصبيان الى الكتاتيب بل كانوا يهتمون بتعليم ابناء الموالي واسرى الحروب . ثم تطور الامر فنشأت البيوت في العهد الاموي وبيوت الحكمة ودور الحكمة ودور الكتب ودور العلم في العصر العباسي فالعصر الفاطمي ، كما اخذت تنشأ المدارس العامة على نطاق واسع في القرن الرابع مع ورود ذكرها في القرن الثالث . وكذلك الربط والزوايا والبيمارستانات في العهدين الاموي والعباسي ، واستمر الامر كذلك بل تنظم واتسع في العهد النوري فالايوبي فالمملوكي فالعثماني . ومشى مع ذلك نسخ الكتب والاعتناء بها وفتح دور الكتب منذ العهد الاموي ، واستمر التنافس في اقتناء الكتب والتفنن في كتابتها في جميع العصور الاسلامية قاطبة .

رابعاً – وكانت الدولة تشرف على هذه المؤسسات وتنفق عليها وتغدق على الطلاب والمدرسين والمعيدين والائمة العطايا والالبسة والطعام على نظام مقرر في شروط وقف المعاهد . وكان القاضي في العصور المختلفة يشرف بنفسه على اوقاف المدارس والربط والبيمارستانات ويراقب كل ذلك ويعيد الحق الى نصابه حتى بعد مرور قرون عديدة . ولدينا نصوص كثيرة عما ذكرت اضرب صفحاً عنها فليرجع الى صبح الاعشى وكتب الطبقات

وابن خلدون وابن جبير وابن بطوطة والنعيمي وابن بدران وابن سحنون والقابسي وابن النديم وابن ابي اصيبعة والحاجي خليفة الخ .. فبيوت الحكمة العباسية مثلاً التي ظهرت بين النهرين ترجع جذورها الى ما قبل الاسلام عند السريان خاصة ، كانت مؤسسات عامة ، ودور العلم وجذورها اغريقية ولدت في العراق ونقلها الفاطميون سريعاً في القرن الرابع الهجري وحولوها الى مراكز علمية ومراكز دعاية من الطراز الاول . ولكنها كانت جزءاً من المنظمات او المؤسسات التعليمية العامة ، وكان يشرف عليها داعي الدعاة ، وكانت منتشرة في سائر انحاء الدولة الفاطمية (على رواية المقريزي في خططه) في مصر والشام ومن اهمها في هذه الديار دار العلم في القدس ودار العلم في طرابلس . وتميز من هذه المؤسسات الازهر الذي بدأ جامعاً سنة ٣٦١ للهجرة واخذ ينشر المذهب الشيعي في القرنين الرابع والخامس للهجرة حتى منتصف السادس ، ثم تطور سريعاً منذ بدء تأسيسه الى مدرسة اسلامية كبرى وما زال كذلك حتى الآن .

كذلك كانت كلٌ من هذه المدارس التي تطورت الى مدارس فقهية بالاكثر والاربطة والزوايا والبيمارستانات الخ .. جزءاً من التنظيمات العامة في العهدين النوري والايوبي فالعهد المملوكي بل والعثماني حتى قبل تنظيمات خط شريف كلخانه سنة ١٨٣٩ .

وكان نظام التقاعد للمعلمين معمولا به في العهد العثماني منذ القرن الثامن الهجري حتى القرون المتأخرة ، وكانت الدولة تنفق على المدارس العامة والربط ودور العلم بنفسها من رسوم تجبيها من

الجوالي كما جاء في كتاب الشقائق النعمانية، فليرجع اليه من اراد التوسع في دراسة نظام التعليم العثماني قبل الاصلاحات، ففيه مورد لا ينضب عن المعاهد العلمية العثمانية . وكانت لغة التدريس فيها العربية والتركية والفارسية . كما يمكن الرجوع للمحبي والمرادي لدراسة المؤسسات في سوريا في القرنين الحادي عشر والثاني عشر للهجرة .

خامساً – وكان لهذا النظام التعليمي غايات واهداف . اما الغاية الاولى فهي فهم كتاب الله وحديث الرسول والعمل بما جاء فيهما ، فكان من الطبيعي ان يدور التعليم حول الكتاب وقراءته وتجويده وتفسيره ونسخه . ونشأت حول ذلك علوم اللغة فالفقه والتوحيد والاصول بل والفلسفة والرياضيات ، وما الى ذلك من العلوم النقلية والعقلية .

وقد شرح لنا كل ذلك شرحاً مفصلًا ابن خلدون في مقدمته الفريدة في باب التعليم، كما وصف لنا العلوم العربية القلقشندي في صبح الاعشى ، وكلاهما من المتأخرين من رجال القرن التاسع الهجري، فليرجع اليهما من اراد مزيداً من تفهم مدى العلوم العربية واتساعها واصول التعليم وادابه وما يتعلق بهذه الصناعة . ونظرة واحدة الى فهرست ابن النديم او الى كشف الظنون للحاجي خليفة الذي طبع طبعة فاخرة في الاستانة تزينا العجب العجاب .

سادساً – لما كان العلم قد بني على الاصول الدينية فقد اصبح مقدساً ، بل فرضاً واقتباسه واجباً وخدمته شرفاً . (انما يخشى الله من عباده العلماء) فالكتاب يحض على العلم والرسول

يدعو اليه والصحابة يبشرون به ويتطوعون لنشره احتساباً لوجه الله لا اكتساباً، وقد اضحى هذا تقليداً عربياً اسلامياً يتبع، وصار رجال العلم (على اطلاقهم) يحاطون بهالة من الاحترام بل والتقديس حتى يومنا هذا. وكلما كان علم العالم عويصاً واطلاعه واسعاً وذاكرته قوية وحفظه غزيراً ازداد احترام الناس له والعمل بارادته.

وقد نشأت عن ذلك الرحلة في طلب العلم، وهي خاصة يتميزها كل باحث متتبع لتاريخ سير التعليم عند العرب. فكان المتفقهون يرحلون من هضبة ايران الى وادي النيل او بالعكس لينهلوا العلم على يدي عالم كبير او محدث شهير.

وقد كان منشأ نشر هذا العلم الحلقات في المساجد، ثم انتقل الى مؤسسات عامة فتحت ابوابها للعموم او اشترط الواقفون شروطاً خاصة لها، كحصر دروسها بفقه خاص، او بمذهب خاص، او منع دخول النساء والاولاد اليها. وقد خدمت هذه المؤسسات غايتها بالنسبة الى زمانها ومطالب عصرها آنذاك.

سابعاً: وتطورت هذه المعاهد مع تطور العصر اذ لما احتك العرب بالاغريق والفرس والسريان في العصر الاموي وابان العصر العباسي صار من الضروري ان تترجم كتب الاغريق والفرس والسريان، فنشأت بيوت الحكمة العباسية. وكان من الضروري ان تنشر الدعوة الفاطمية توطيداً لدعائم الدولة الفتية وجرياً وراء نشر العلم فكانت دور العلم الفاطمية. ثم رأت الدولة العباسية ان تقاوم منافستها الدولة الفاطمية، فكان من الضروري نشر الفقه الشافعي والمالكي ومحاربة الدعوة للتشيع، وذلك عن طريق فتح

المدارس الفقهية فكانت المدرسة النظامية في بغداد . ورأى نور الدين ومن بعده صلاح الدين من الواجب ان ينشرا الفقه الشافعي فأسسا النورية بدمشق، فالمدرسة الصلاحية في القدس ،وكان كلاهما شديد التعصب لشافعيته .

وكان من المستلزمات الحربية ان تحافظ الدولة على الثغور الواقعة على حدود الدولة فكانت الاربطة التي اسست لغايات حربية ، ثم ما لبثت ان تطورت فاصبحت دوراً للصوفية ، ونشأت الزوايا ثم انتقلت من بيوت صوفية علمية الى مؤسسات اجتماعية للترفيه ، وخصوصاً في اثناء الحروب الصليبية بين القرنين السادس والثامن للهجرة ، فكانت الخانقاهات التي اخذت تؤوي الجنود وترفه عنهم وتسد مطالبهم الجسدية والروحية . واستدعت الحروب الصليبية تأسيس البيمارستانات لمداواة الجرحى وتضميد جراحهم ، فكانت هذه المؤسسات تتمشى مع المدارس الفقهية والاربطة والخانقاهات وذلك بشكل نظامي مستمر في العهد النوري فالصلاحي فالمملوكي التركي فالشركسي ، واستمر الامر على هذا الحال حتى جاء العصر العثماني، فضعفت المدارس في البلاد العربية وتطورت الزوايا والربط الى تكايا وانحلت هذه في آخر الامر الى دور اطعام للفقراء او مطابخ عامة للكسالى ، والمرتزقة ولابناء السبيل .

ثامناً – على ان جميع هذه المؤسسات العلمية والعلمية الاجتماعية التي خدمت غايتها بالنسبة الى عصرها اخذت تنحل رويداً رويداً في ادارتها وعمارتها ومناهجها بل واهدافها . وقضت عليها في المشرق في البلاد العربية الموجة المغولية التي اكتسحت العراق والشام في

القرن السابع للهجرة كما قضى عليها توالي الحروب وضعف الحكم والاهمال والطمع .

وضعفت ماليتها واستولى عليها المستبدون، وضاقت مناهجها ولم يعد الطالب والاستاذ يستعملان عقلهما، فصارت الفلسفة محرمة، وانتصر الفقه انتصاراً تاماً وخصوصاً بعد عصر المأمون ، واخذ الروتين الديني يطغى على التفكير الحر ، ولم تعد امهات الكتب تدرس بل صارت تدرس الملخصات وملخصات الملخصات وشرح ملخص ملخص الملخصات ، تدريساً ببغائياً عن ظهر قلب واصبح العلم حفظاً، وصار يقال حفظ فلان الكتاب الفلاني والفلاني وكان فلان يحفظ وقر بعير ، كأن العلم هو مجرد حفظ ليس الا . وقد استمر هذا التقليد مع الاسف طيلة القرون المتأخرة ، حاشا ظهور بعض المفكرين المبتكرين هنا وهناك . على ان الاتجاه كان في الاجمال نحو تقوية الذاكرة والحفظ، فاغوصهم علماً اكثرهم حفظاً ، حتى اذا ما جاء العصر العثماني وفتح العثمانيون البلاد العربية في القرن العاشر الهجري كانت هذه المؤسسة قد ضعفت او تلاشت وانتقل مركز الثقل الى الاناضول والروملي، حاشا الازهر الذي ظل قائماً في المشرق اذ لم تتناوله الحروب ولم تصل اليه يد هولاكو الاثيمة. وكان في الامكان اعادة هذه المؤسسات التي ترعرعت في عهد الايوبيين والمماليك وتجديدها وتنشيطها ، ولكن الاتراك اهملوها في البلاد العربية خاصة ولم يعوضوا مكانها ،حتى كانت سنة ١٨٣٩ ميلادية اذ باشروا بالاصلاح ، ونظمت الدولة العثمانية على اسس حديثة ،وتأسس مجلس المعارف الاعلى في الاستانة .

ويلاحظ المتتبع فيما يلاحظ تكوين مجموعة من التقاليد التعليمية حول هذه المؤسسات فيما يتعلق بالهدف وهو العلم من اجل العلم وبالمعمار وبعلاقة المدرسين بالدولة والطلاب واصول التدريس واداب المعلم والمتعلم وكتب التدريس والتنظيم الداخلي وما الى ذلك مما يعد فتحاً في علم التعليم . وقد شرح لنا ذلك ابن خلدون وصبح الاعشى وغيرهما .

أنظمة التعليم الحالية في البلاد العربية (١٨٣٩ — ١٩٥٠)

إذا استثنينا الازهر في مصر والدروس التي تلقى في المسجد الاقصى في القدس والجامع الاموي في دمشق والجوامع الكبرى الاخرى في امهات بلدان المشرق كبغداد وحلب الخ . . . فان جميع المؤسسات التي عاش البعض منها بضعة قرون تلاشت في العهد العثماني، واستولى عليها المرتزقة من ادعياء العلم، واغدقت الدولة المال على ادعياء العلم من المدرسين على قاعدة من مات عن وظيفة فلولده . فاصبح التدريس وسيلة للارتزاق وارضاء طبقة العلماء لاسباب سياسية، وما لبثت ان اندثرت هذه المؤسسات، وما زلت ترى انقاضها وهيا كلها قائمة في القاهرة والقدس ودمشق وغزة وطرابلس وحمص وحماه وبغداد الخ . .

واقتصر العلم في اوائل هذا العهد على حفظ القرآن حفظاً ببغائياً وتفسيره تفسيراً شكلياً اصولياً ، ثم حفظ بعض قواعد فقهية او كتب او شروح او متون بعض المختصرات في بعض العلوم النقلية التي تمتّ الى الكتاب بعلاقة متينة ، ثم نسخ بعض

الكتب والتفنن في الكتابة وتزيين الكتب .

وقد حضرت بنفسي بعض الامتحانات لطبقة من ادعياء العلم ممن تقدموا يطلبون وظائف التدريس في اوائل سنة ١٩٢٠، وكانت اللجنة مؤلفة من هيئة علمية دينية ، فكانت الاسئلة تدور حول عدد حروف المضارعة ويجمعها قولك « انيت » ، وعدد حروف القلقلة ويجمعها قولك « قطب جدٍ » وما الدليل على وجود الله ! وما فرائض الوضوء ! وهكذا فمن اجاب على هذه الاسئلة نجح ومن أخطأ اخفق.

كذلك الاربطة التي كان لها غايات حربية في بادىء الامر اصبحت هي والزوايا صوفية حربية ، ثم دينية « صوفية » اجتماعية ، ثم اخذت تتلاشى في العهد العثماني وانقلبت الى تكايا او استعيض عنها بذلك فصارت محطاً للكسالى والزُمن من المرضى توزع عليهم الشورباء والخبز ويستثمرها المتولون على اوقافها من مدعي العلم من ذوي النفوذ. واما البيمارستانات فقد تلاشت واهملت واصبحت مربطاً للخيول وصارت مرادفة « لدور المجانين » ، مع انها بحسب مصطلحها تعني دور المرض وكان لها فروع للنساء والرجال والامراض المختلفة للمبرودين والمحرورين وامراض الجلد والعيون ، كما كان لها فرع للامراض العقلية وكانت المياه تجري فيها ، وكان عليها اطباء وقوّام من الرجال والنساء كما جاء في المقريزي وطبقات الاطباء بل كان فيها في اكثر الاحيان فرع لتدريس الطب.

وخلاصة القول ان الملك العربي لما زال زالت اكثر المؤسسات العلمية التقليدية او هزلت ، وظل الطابع التقليدي الديني واللغوي

هو الطابع المسيطر على التدريس في المساجد وما تبقى حولها من المدارس الخربة .

وقد وصل الينا هذا التراث التعليمي وقد تراكمت عليه غبائر الماضي وعشش فيه عنكبوت الجهل والتعصب وضيق التفكير والافق ، فكان اقرب ميراث الينا يؤلف نموذجاً ضيقاً محدوداً ضعيفاً في بنيانه ومنهجه وكتبه ومعلميه . وقد أثر هذا النموذج المشوه وما زال يؤثر تأثيراً بليغاً في عقلية الجماهير . ولا بد من وقت يمر قبل ان نستطيع ان ننفض عنا تماماً غبار هذه العصور الجامدة المتأخرة المظلمة فنطهر الذهب مما علق به من التراب طيلة هذه القرون . ذلك لان التقاليد التربيوية ليس من السهل التخلص منها . فالناس شديدو الحرص على التمسك بها كحرصهم على التمسك بتقاليدهم الدينية بل اكثر .

ولما زاد ضغط الدول الاوروبية على الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر واجبرت الدولة على الاصلاح وبديء به منذ سنة ١٨٣٩ كانت سوريا ما تزال تحت الحكم المصري وكان قد تبقى من نظام التعليم العربي السابق :

١ ـ الكتاتيب وهي المدارس الابتدائية ، وكانت قد ضعفت واضمحلت واصبحت تقوم في بيئات قذرة غير صحية ، واحترف مهنة التعليم ذوو العاهات من المرتزقة كما هي الحالة في بعض البلدان العربية حتى الان .

٢ ـ ظل الازهر يؤدي رسالته الدينية ويخدم اللغة العربية ولكن على نظام تقليدي ، ومع هذا ظل يحمل مشعلاً يشع منه

بصيص النور في ذلك الظلام الدامس. ولم يتأثر بالاساليب العلمية في البحث التي كانت غزت اوروبا بعيد النهضة الصناعية فقلبت اساليب الفكر الانساني واصول التدريس رأساً على عقب. على انه لابد من الاشارة هنا بان هنالك محاولات جدية لتطور الاساليب في الازهر في الاقسام الابتدائية والثانوية خاصة في الربع الثاني من هذا القرن.

٣ – وجود عدد من المدارس الدينية وبالاخص حول المساجد، كمسجد القدس ودمشق وحلب وبغداد وغزة وعكا وطرابلس الخ .. وبعض الحلقات في سائر المساجد، ولكن اكثر المدرسين كانوا يتناولون اجورهم بموجب فرمانات سلطانية دون ان يؤدوا عملا حاشا الاقل منهم. وكذلك بعض المدارس الدينية حول الاديرة والبيع والكنائس.

وفي سنة ١٨٣٩ قامت الدولة باصلاح عام شامل في التنظيمات الادارية والتعليم وانشأت مجلس المعارف في استنبول وشرع في تأسيس المدارس الرسمية في جميع انحاء الدولة بعد ذلك.

النظام العربي التركي الافرنسي

وكان قد سبق ذلك هزات عنيفة ايقظت الامة العربية من سباتها. من ذلك حملة نابليون الفاشلة التي اثرت على مصر اكثر من اي قطر عربي، وفشلت عسكريا عند اسوار عكا، وذلك في ١٧٩٨، ولكنها تركت اثراً لا يمحى في الحياة العقلية بما جلبت الى مصر من وسائل المدنية الحديثة وعناصر الثقافة. ولا شك في انها اثرت على الشام عامة بطريقة غير مباشرة. ثم تبع ذلك قيام محمد

علي وولده ابراهيم باشا الذي فتح سوريا وحكمها من سنة ١٨٣٠ - ١٨٤٠ واذل جبروت الدولة وهز اركانها. وهنا اخذت الدولة تفتح عيونها للاصلاح وابتدأت في تحرير العناصر. ويصح ان نعتبر هذه الفترة بدء النهضة الحديثة التي ادخلت العالم العربي والتعليم العربي في طور جديد. وليس لك الا ان تقرأ ما كتبه الاستاذ تاجر في كتابه القيم «الكتب المترجمة في القرن التاسع عشر» لتطلع على مدى اتساع هذه النهضة من ناحية واحدة هي ترجمة الكتب الافرنجية الى العربية.

قلنا ان لائحة الاصلاح بدأت سنة ١٨٣٩ ولكنها ظلت بمثابة محاولات في الدولة، واستمرت تتأرجح، فادخل نظام الولايات العثمانية الحديث وهو نظام افرنسي خالص، فالولاية هي الـ Departement والمتصرفية هي الـ Arrondissement والقائمقامية هي الـ Canton والمديرية هي الـ Mairie.

واخطأت الدولة خطأين فاحشين اساسيين - اولاً: لم تتبع أساليب الاصلاح الطبيعية وهي الشروع في اصلاح المؤسسات العلمية الموجودة والتدرج من ذلك الاساس في الابنية والمناهج والكتب واساليب التدريس الخ. ولم يبتدئوا العمل من الكتاتيب وبقايا المدارس الدينية بل نحوا جانبا آخر بالمرة، ذلك انهم اقتبسوا النظام الاداري الافرنسي الاجنبي واقتبسوا معه نظام التعليم الافرنسي بنصه وشكله في تشكيلاته وتنظيماته، بل في جميع دقائقه وشوارده دفعة واحدة، ولكنهم بالطبع اخطأوا التقليد في روحه وفي كفاءة معلميه وفي كتبه. ونخص بالذكر

بعض نواحيه ، من ذلك مشكلة المعلمين وخصوصا معلمي القرى والريف اذ تركوا تعيينهم الى لجان محلية بدلا من ان تتولى ذلك السلطة المركزية الفنية ،فادى ذلك الى التشويش في الادارة وظل التعليم في الريف اسميا .

فكانت الجامعة في استنبول وهذه هي الـ Université بفروع الطب والهندسة والحقوق ،وكانت المكاتب الاعدادية ثم قلبت الى سلطانية فيما بعد وهي الـ Lycée وكانت المدارس الرشدية وهي الـEcole Primaire Superieure ثم المدارس الابتدائية وهي الـ Ecole Elementaire فكانت الاعدادية ذات السبع سنوات بعد الابتدائية في الولاية والخمس سنوات في المتصرفية ، والرشدية ذات السبع سنوات (ثلاث رشدية واربع سنوات ابتدائية) في القائمقامية ، والابتدائية ذات الاربع سنوات في مراكز المديريات .

ثانياً ـ ان التساهل الاسلامي التقليدي وركاكة الحكم اللذين تمشيا طيلة عصور مديدة ،من جهة ، وضغط الدول الاجنبية ،من جهة ثانية سمح للطوائف غير المسلمة ان تتكتل على اساس الملة ، واجاز لهذه الملل ان تؤلف وحدات شبه مستقلة ،فكانت لهـا مدارسها ومؤسساتها العلمية ،وانحصر عمل التعليم الرسمي العام بالمسلمين بالاكثر ، رغم ان المدارس الرسمية العثمانية كانت مفتحة الابواب للجميع . وكان لسياسة التكتل الملي هـذا اثر بليغ من الناحيتين الثقافية والسياسية ، فقـد قسمت عناصر الدولة الى ملل ونحل شبه مستقلة لكل منها مدارسها الخاصة بها . ولم تندمج هذه العناصر في مدرسة واحـدة كما كان يجب ان يكون ، بل بالعكس ازداد الوعي

الطائفي ، والشعور بالطائفية ، فالف هذا على توالي العصور شعورا متبلوراً اصبح تقليداً معمولا به وما زلنـــا نعاني اثره في البلاد العربية حتى اليوم. ولن يمحى هذا الشعور الملي في سائر نواحيه الا في وجود مدرسة وطنية واحدة يؤمها جميع ابناء الامة فيدرسون على مقعد واحد وتحترم فيها عقائد وطقوس كل فرد، شأن الطوائف في انكلترا واميركا واوروبا في المدارس العامة .

وكان تعليم الاناث هزيلاً ضعيفاً . ولا اعرف انهم تمكنوا حتى في آخر ايام حكمهم من رفع مستوى التعليم النسوي عن المرتبة الرشدية او ما يقرب من ذلك ، حتى في مراكز الولايات ، ما عدا تأسيس دار للمعلمات في بيروت ودمشق ومراكز الولايات واخرى عالية في الاستانة ، واخطأوا خطأ عظيماً اذ تركوا ادارة المدارس في الريف ماعدا مراكز المديريات في ايدي لجان محلية ، كما ذكرنا ، تتصرف بهذه المدارس وتعين معلميها كما تريد، وهكذا خرجوا عن النظام الافرنسي في ناحية من اهم نواحيه ، مما ادى الى انحطاط مدارس الريف اجمالاً اذ تكاد تقول ان المدارس الريفية كانت حتى في اواخر العهد اشبه بكتاتيب منها بمدارس . وكانت اماكنها غير صحية وأثاثها يكاد يكون مفقوداً ومعلمّوها من انصاف المتعلمين . ويقول ابراهيم حلمي احد كتاب الاتراك المشهورين ان الحالة وان تحسنت بعض الشي بعـــد الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ الا ان الاصلاحات كانت في اكثر الاحيان حبراً على ورق . من ذلك ان وزارة المعارف كانت تعلن عن عزمها على افتتاح مئات المدارس في الولايات فكان المؤلفون يسرعون الى طبع آلاف النسخ من

كتبهم ثم يتصلون بالمدارس فيجدون ان القسم الاعظم منها لا وجود له، وتردهم الاجوبة بان المدرسة لم تفتح لعدم وجود البناء او لألغاء لجنة المعارف او لعدم وجود الاساتذة الخ . فكانت خسارتهم في الكتب كبيرة واستياؤهم شديداً .

وكان نظام التعليم اجمالاً نظاماً ضعيفاً في هيكله وتنظيمه وادارته. وكانت لغة التعليم الرسمية فيه التركية، وكانت العربية تدرس فيه عن طريق التركية اي كلغة اجنبية . وكان اكثر اساتذة اللغة العربية من الاتراك . وظلت هذه المدارس الرسمية جامدة لا روح فيها ركيكة في هيئة تعليمها ،وانى لها ان تجاري المدارس الاجنبية التي اخذت تغزو الشرق خاصة في اواسط القرن التاسع عشر بشكل نظامي وعلى اساس تنظيم اوروبي حديث . وهكذا تألف من ذلك سلسلة من المدارس في انحاء الامبراطورية العثمانية نموذجها الاصلي في فرنسا،وقد طبعها الاتراك بطابعهم الروتيني واحتفظ بها العرب حتى اليوم ،وما زال طابع هذه المدارس ظاهراً في مدارسنا الثانوية في اكثر البلاد العربية ما عدا مصر لاسباب لا مجال لذكرها ، وقد ادخلت عليها بعض تغييرات كان اهمها ان اصبحت العربية لغة التدريس . ولكنها ما زالت افرنسية في اورمتها،تركية في مبناها ،عربية في ظاهرها ولباسها . بل لعل بعض المدارس السلطانية العثمانية في اواخر العهد العثماني كانت تفضل بعض مدارسنا العربية الآن .

نظام التعليم الاجنبي

قلنا انه مشى مع هذه المدارس التي تأسست في البلاد العربية

من ١٨٣٩ او بعيد ذلك الى ١٩١٧ سلسلة من المدارس الاجنبية من اميركية وانكليزية وروسية والمانية وافرنسية تحمل كل واحدة منها طابع بلادها ويشرف عليها مبشرون لبعضهم غايات معلومة دينية ثقافية في ظاهرها، سياسية اقتصادية في باطنها . وقد مهّد هذا النظام التعلمي الاجنبي لكثير من الاوضاع التي طرأت على هذه البلاد بعد زوال الحكم التركي عنها سنة ١٩١٧ ؛ ولا يستطيع المكابر ان ينكر من جهة أخرى فضل هذا النظام على الشرق من جهة نشر العلم ورفع المستوى الثقافي . كما مشى معها سلسلة من المدارس الطائفية التي انشأتها الملل المختلفة وبرز فيها الطابع الطائفي بروزاً ظاهراً منذ نشر لائحة اصلاح كلخانه سنة ١٨٣٩ .

وتصارع النظامان فكان من الطبيعي ان يتغلب النظام الاجنبي والملي على العثماني، رغم جميع محاولات الدولة العثمانية في اصلاح المناهج وابنية المدارس والمعلمين، وخصوصاً بعد سنة ١٩٠٨ اي بعد اعلان الدستور العثماني . على ان القاطرة البخارية كانت قد سبقت قافلة الجمال فتأخرت المدارس العثمانية عن السير في ركب الحضارة، وعجزت عن صهر عناصر الدولة المختلفة ودمجها في عنصر واحد . ففشلت في ايفاء وظيفتها الاولى وانحصر عملها في اخراج بعض الموظفين ، وما زال متخرجو المدارس العثمانية حتى اليوم يلعبون دوراً رئيسياً في الشؤون العربية .

وقد نستثني من المدارس العثمانية جامعة استانبول وبعض فروعها ، وبعض المدارس الثانوية الرسمية كغلطة سراي، وهي نموذج تام لليسيه الافرنسية، فلغة التعليم فيها ، الى جانب التركية ،

هي الافرنسية وجلّ اساتذتها افرنسيون، وكانت تعدّ متخرجيها للسلك القنصلي خاصة .

وجوب تطور انظمة التعليم والاهداف

نحن من القائلين بان نظام التعليم لايه امة يجب ان ينشأ في البلاد على جذور اهلية ، ومن ثم يتطور تطوراً تدريجياً من ذلك الاساس تبعاً لمطالب العصر واهداف الامة وفلسفتها . ونحن لا نعتقد بان اقتباس الانظمة التعليمية الغربية اقتباساً ببغائياً دون تعديل او تبديل يأتي بالفائدة المطلوبة اذ نعلم مثلاً ان الـ Public School هي نبتة انكليزية لها خصائصها ، والجمنازيوم هي نبتة المانية لها ميزاتها ، والليسيه نبتة افرنسية لها فضائلها . وكما ان تفاح الزبداني اذا نقل الى الساحل لم يعد تفاحاً زبدانياً ، والبرتقال اليافي اذا نقل الى تربة اخرى زالت خصائصه الاصلية هكذا الانظمة التعليمية والاجتماعية والقضائية .

من اجل هذا فنحن نؤمن بالتطور الطبيعي لا المصطنع في انظمة التعليم ، ونرى ان تطور النظام يجب ان يتمشى مع عقلية الامة وتفكيرها واهدافها .

اما عيوب انظمة التعليم الحالية في البلاد العربية فتتلخص في انها انظمة مقتبسة غير طبيعية ، ولهذا فجذورها اجنبية وغصونها وأثمارها كذلك . والتدريس فيها ميكانيكي يعتمد على ذكرة الطالب في الدرجة الاولى . والاعتماد على الحفظ هذا من ميراث عصور الانحطاط خاصة . كما ان الفرد فيها مهمل ، فشخصية الطلاب

مضغوط عليها، ولهذا تؤلف وحدات مكبوتة، وقد شل فيها ابتكار الطالب وتفكيره الحر الطليق وخياله . والروح الرياضية الحقة معدومة فيها، فالالعاب ما زالت تلعب للغلبة وما زال الفرد فيها هو المهم، وما زال الجمهور يصفق للفرد اللاعب فيها لا للمجموع . كما ان التربية الدينية الحقة الممثلة بالمثل العليا لا وجود لهـا ، فالدين بمفهومه الحقيقي لا يؤثر تأثيراً فعالاً في حياة الطلاب من الناحية الخلقية . والتدريس الديني سطحي ، والروح الدينية التي تُدعو الى مكارم الاخلاق والى إنصاف الناس والتنزّه عن الصغائر مفقودة ، وكتب الدين سقيمة مهلهلة لا تفي بالمراد. ولا تنمي هذه الانظمة الشعور الوطني اي شعور التمسك بالوطن والاستعداد للتضحية من اجله، وفقدت فيها الروح العسكرية وتدريب الشبان عليها ، وروح التعاون بين الهيئات التعليمية والطلاب . ولا تصهر فيها العناصر المختلفة في بوتقة واحدة بل هي مع الاسف تقوي روح الطائفية وتنميها .

اضف الى هذا جميعه ان مخصصاتها المالية لا تكفي ، والقسم الاعظم من الامة جاهل ، وبذل الحكومات والافراد من اجلها قليل .

ثم هناك فقدان الكتب المدرسية وعدم صلاحيتها وجهل المؤلفين واستئثارهم لها بشكل بارز بشع .

ثم هناك نقص فاضح في المعلمين المدربين علماً وعملاً. والراغبون من الشبان والشابات للتضحية في خدمة هذه المهنة الشريفة قليلون. ثم ضعف الناحية الفنية في الاعمال اليدوية والموسيقية وغير ذلك

من الفنون لفقدان التخصص وفقدان التقليد وعدم الاهتمام بها في المنهاج .

لهذا جميعه ولاسباب اخرى نرى ان يعاد النظر في انظمة التعليم في البلدان العربية من اسسها الاولية، بحيث تنطبق برامجها على مطالب الامة وحاجاتها واهدافها . ويقتضي هذا تحديد فلسفة التربية وتعيين الهدف. واول هذه الاهداف تكوين امة مستقلة قوية وارادتنا كاملة لان نحيا كذلك . ولا يمكن ان نحيا اذا لم نكن مستعدين للتضحية، فلا بد من زرع هذه الروح وتنشئتها علماً وعملاً، ولا بد ان نربي الجيل على الاستعداد للتضحية في الروح والنفس والمال والجهد من اجل الوطن الذي نعيش فيه، ومن اجل التراث الادبي الذي نفتخر ونتغنى به .

لهذا يجب احداث تغيير اساسي في اهداف التعليم واساليبه وجوّه وروحه ، بحيث يصبح عملية فعالة حيوية خلاقة مبنية على اسس علمية واعية. ومن اجل هذا يجب تغيير برامج التعليم من اساسها ، وقلبها رأساً على عقب . ومن ثم تطبيقها لنصل الى تلك الاهداف . واهم مواد المنهاج اللغة العربية ، فكتب التدريس وكتب القراءة خاصة اكثرها سخيف ممل سقيم تقليدي استثماري ، فيجب استبدالها حالاً بكتب ديناميكية من صميم الادب القومي او الادب العالمي، ويقال مثل ذلك في كتب قواعد اللغة وآدابها.

ويجب الاحتفاظ باللغة العربية لغة تعليم في جميع مراحل الدراسة من اولية الى ثانوية الى عالية ، وحذار ان تصبح اللغة الاجنبية لغة التعليم اي لغة فعالة عند الطلاب ، فان ذلك يشل

الابتكار والتفكير والخيال ، كما هي الحال عند عامة متخرجي المدارس الاجنبية .

ويمشى مع هذا وجوب الاهتمام جدياً بلغة اجنبية حية اهتماماً خاصاً هي في نظرنا اللغة الانكليزية ، وذلك ربطاً لعلاقتنا بالعالم الخارجي ولاسباب ثقافية . وتدرس هذه اللغة بعد ان يتقن الولد قراءة لغته وكتابتها اي بعد السنة الرابعة الدراسية للطفل .

كذلك يقتضي اعادة النظر في تدريس التاريخ العربي واعادة كتابته من جديد ليلائم مطالبنا . فالتاريخ العربي في نظرنا كما يدرس الآن في المدارس الابتدائية والثانوية سقيم هزيل ، وهو عبارة عن مجموعة معلومات متقطعة ، متبعثرة ، مشوهة ، مغلوطة ، مضللة .

ثم لا بد من الاهتمام بالعلوم الطبيعية والحياتية اهتماماً فعالا حياً جدياً ، وتجهيز المدارس بالمختبرات والاساتذة الذين يحسنون استعمال هذه المختبرات ويدربون ابناءنا على استعمالها وعلى الطرق العلمية في البحث منذ الصغر .

فتعليم العلوم الطبيعية ضعيف نظري يحشو عقل الطالب بالمعلومات ، والروح العلمية وروح البحث لا وجود لهما . كذلك الاهتمام بجغرافية البلاد العربية وبطبغرافيتها وتكوينها ومناخها ومعادنها وكنوزها وعلاقاتها التجارية والاقتصادية اهتماماً خاصاً ، واثارة محبة الطلاب لبلادهم وربط الجغرافيا بالتاريخ في كل مناسبة واعداد الكتب والادوات اللازمة لذلك .

ويقال مثل ذلك في الاهتمام بالرياضة البدنية ، والروح الرياضية ، وتنشيط الروح العسكرية ، والتدريب العسكري الفعلي للبنين

والبنات في جميع المدارس الثانوية في الصفوف العليـــا الخ . بحيث لا يجاز اي طالب او طالبة من مدرسة ثانوية او جامعة الا وقد أمضى مدة التدريب العسكري كما هي الحـــال في البلدان الحديثـــة .

ولا بد لاصلاح النظام من الاهتمام الكلي بدور المعلمـــات والمعلمين ، ولا نرى فرقاً بين معلم المدينـــة والقرية ما عدا المعلم الاختصاصي في مدرسة الريف او المدينة . وانا من القائلين بوجوب وجود مدرسة معلمين واحدة ، كمدرسة الطب الواحدة ، واعارض في تأسيس دور معلمين اولية وابتدائية لتدريب معلمين للمدارس المختلفة . اما المدارس الثـــانوية فتستمد اساتذتها من خريجي الجامعات ومن اعضاء البعثـــات العلمية من ذوي العقول النيرة والكفاءات العلمية العالية .

كذلك ادعو الى الاكثار من تأسيس مدارس داخلية ثانوية على غرار المدارس العامة الانكليزية تتناول الولد او البنت من سن ١٢ الى ١٨ تثقفه بلغته الوطنية في محيط جميل جذاب تحت إشراف اساتذة مختارين من خريجي الجامعات في جو رياضي نشيط ، وتهتم بتربية العادات المستحبة والخصال الخلقية تربية عملية كالتضحية والاطاعة والنظام وتحمل الغلبة والتعاون والسعي لهدف معين مشترك ، ولا تتم هذه التربية الا بايجاد مدارس داخليـــة خاصة تدفع رسوماً وتعفي الاذكياء وغير المقتدرين من المتفوقين من الدفع على نظام المنح المدرسية السخية ، وفي هذه المدارس والكليات تنشأ التقاليد القومية ويربى الشبان والشابات تربية مثلى ، كما ادعو الى عدم مجانية

التعليم العالي والى اعطاء منح سخية للمتفوقين من الطلاب الذين يصلحون للتعليم العالي .

ومع انني من القـــائلين بوجوب تشجيع الافراد والهيئات والجماعات على تأسيس المعاهد العلمية العامة ، الا انني اعتقد بان الدولة يجب ان تتحمل المسؤولية الاولى والعبء الكبير في نفقات نظام التعليم وان تسيطر سيطرة تامة مباشرة أو غير مباشرة على هذه المعاهد وتوجهها وتسيرها نحو الهدف المنشود .

ومن العبث ان نرجو الخير للعرب اذا لم يضغط الرأي العام ضغطاً شديداً على الحكومات لكي تزيد المخصصات للتعليم بحيث تصل الى ٢٥ بالمئة من الميزانية فيقضى على الأمية تدريجياً والا فلا رجاء لامة ثمانون بالمئة من ابنائها جهلة واكثر بناتها أميات . ولهذا فمن واجب الدولة ان تشجع المجهود الفردي حيثما كان ، ضمن نظام وطني واحد تكون لغة التعليم فيه اللغة الوطنية وتكون أهدافه صريحة .

هذه المؤسسات من مدارس ومستشفيات ونواد ومكتبات ودور علم هي التي تحمي لنا اللغة والتقاليد القومية والمقومات الشخصية والمثل العليا وبالتـالي كيان الاستقلال الذي هو أعز ما يملك .

لقد اثبت لنا الاختبار المرير ان المدارس التي أقمناها في فلسطين على ما كان فيهـــا من نظام وترتيب من حيث أبنيتها ومستوى معلميها لم تستطع ان تفي بالغرض منها . ذلك ان الخصم وقد عرف ما يريد كان يحاول امتلاك القوة فيدرب شبابه وشاباته على القتال والصراع وروح العداء والانتقام ، فكان يهتم بلغته وتاريخه وجغرافيته

اهتماماً عجيباً وكنا نهتم بالعلوم الادبية وندرب شبابنا ليكونوا مهذبين مسالمين، في حين كانوا يدربون شبانهم وبناتهم على استعمال المترااليوز ومدفع الهاون يوم كنا نعلم شبابنا استعمال مضرب التنس واحترام معتقد الغير وآراءه. فاذا لم نعرف مانريد، نُرِدْ ما يجب ان يكون فلن نتقدم في هذا السبيل.

في هذا الصراع الهائل يجب على المسؤولين في العالم العربي ان يتساءلوا عندما يجلسون لاعادة النظر في مناهج التعليم: ما هي الغاية او الهدف من التعليم لابناء العرب اليوم؟ هل هو خشية الله؟ هل هو خلق مواطن صالح؟ هل هو السمو بالفرد الى الكمال؟ هل هو تحصيل القوت والمعاش؟ هل هو رفع مستوى المعيشة؟ هل هو تنمية مواهب الفرد؟ هل هو اعداد الفرد ليحافظ على استقلاله وكيانه؟ وكيف نمتلك القوة الجسدية والعقلية والمالية في افرادنا ومجموعنا؟

وخلاصة القول اننا يجب ان ننشيء نظاماً يهدف الى المحافظة على استقلال الامة وكيانها، فنسهل لكل فرد من افرادها مهما كان مركزه في المدن والريف على السواء ان يدخل ضمن هذا النظام ويفيد منه بحسب مواهبه وقدرته. ويقتضي هذا ان نهتم بكل فرد من الافراد ذكراً كان ام انثى، وننشئه ونقويه فلا نترك عقلاً لا نصقله ونهذبه. وليس من المناسب ان نكبت الفرد ونضغط على الشخصية الفردية وتكوينها في سبيل الحصول على الشكل الظاهري الموحد. وكل نظام تعليمي يجب ان يهدف الى اكتشاف العقول القوية في الامة ورعايتها والاخذ بيدها وتيسير السبل

لتعليمها وتثقيفها كما يكتشف المواهب الخاصة في كل فرد وينشط هذه المواهب ويأخذ بيدها الى الكمال، ولا يكون هذا الا اذا كان التعليم عاماً شاملاً . وبالاجمال فان نظام التعليم يجب ان يقوم بتهيئة البيئة المناسبة للطالب لتجد تلـــك المواهب مجالا للنمو والظهور في اكمل صورها .

ولن يكتب للعرب البقاء اعزاء اقوياء كراماً الا اذا اعادوا النظر في مناهجهم وقلبوها ظهراً على عقب وتطوعت اقوى العناصر لخدمة التعليم ومشوا في ركب الحضارة كما مشى غـــيرهم خطوة خطوة ودرجة درجة على ضوء الواقع الحاضر، مسترشدين بعقولهم لا بعواطفهم، مستعينين بالاساليب العلمية الحديثة الحرة، مستمدين من ماضيهم قوة وعزماً، ومن تاريخهم والتاريخ الانساني العام مثلاً علياً يمشون على غرارها ويسترشدون بهديها . ومن اراد الحياة كتبت له الحياة، ومن اراد الموت فهو اهون السبل وايسرها . ولست ارى ان العرب جادون اليوم، ولم يريدوا بعد ان يعيشوا احراراً .

الاتجاهات الحديثة في الاسلام

للاستاذ محمد بهجة الأثري

•

يواجه الاسلام في هذا العصر مجموعتين هائلتين من المشكلات العويصة المعقدة : المشكلات القديمة التي تراكمت عليه في عصوره الطوال ، وعملت على تغيير صورته وتحويل وجهته عن مجاريها العالمية الى ان تأخر أهله وعاد هو غريباً بينهم غربته بين غيرهم ، والمشكلات الجديدة التي أحدثها له ، ولا يزال يحدثها له ، هـذا السلطان السياسي لدول اوربة في دياره ومحاولاته الكثيرة المتنوعة في مكافحته لافساد يقظته ، وعزله وإقصائه عن واقع الحياة ، مخافة سلطانه واستعلائه .

والبحث في وجهاته في هذا العصر يستلزم ، قبل تناوله ، رسم صورتين موجزتين لهاتين المجموعتين من مشكلاته ترتيباً للنتائج على المقدمات وربطاً للمسببات بالاسباب ، وبدون الاستنارة بما ينبغي ان نضمنهما من حقائق لا نستطيع ان نقدر حق التقدير خطورة التطورات المختلفة التي ظهرت في وجهات الاسلام اليوم.

واني لمضطر ان اعترف ، قبل الخوض في هذا الخضم المتلاطم

عبابه ، بأني قد ظلمت نفسي أبشع الظلم حين اطمأننت الى الرضا بتناول هذا المبحث العظيم في محاضرة، في ساعة عابرة من الزمان، وهو يلف في حناياه احداث ازمنة طوال حافلة من قضايا التاريخ وغرائب الأطوار والوان المنازع والغايات بما لن يستطيع الاحاطة بها واستخلاص وجهاتها الا معهد منظم يتوفر على دراستها .

ولكن نبل الغاية التي دعيت الى المشاركة فيها ، وتقدير الثقة التي اولانيها علماء الجامعة الأجلاء القائمون بتدبير شؤون هـذا المؤتمر الكريم ، قد رجحا عندي على هضم نفسي وايثار اقحامها هذا المأزق .

وزاد في رجحانهما على ذلك في ميزان التفضيل والايثار هذه الصورة الجميلة التي ارتسمت في خيالي من جمال النفوس ورجاحة العقول التي سأواجهها هنا ، ثم ما قام في نفسي بعـــد ذلك من الطمع في كرم شمائل السامعين وادراكهم العميق ، وما يوحيه هذا وذاك اليهم من التقـــدير بطبيعة البحث وزمنه وما تقتضيه ضرورة الموقف من عذر المحاضر او قبول عذره .

***

ليس للاسلام مشكلات في نفسه عنـد من يتدارسونه ، ويتعمقون عقيدته وتشريعه ونظامه في قرآنه والصحيح الثابت من سنن رسوله ، وفي ترجمتها الى اعمال وأخلاق ومطامح عليا كما ترى في سير خلفائه وابطاله وعلمائه ومفكريه وساسته وقادته في عهوده الاولى خاصة .

وإنما مشكلاته هي من خارج نفسه في القديم وفي الحديث .

اما مشكلاته القديمـــة ، فقد نشأت له من سلسلة الآفات والكوارث والحملات العنيفة التي تعرض لهـا في تاريخه المديد ، وكان الباعث عليها عوامل شتى من العصبيات والاحقاد وقفت له بالمرصاد ونزلت الى ميدانه تصارعـه وتغالبه ؛ لتقضي عليه ، أو لتحد من نشاطه السياسي ونفوذه العالمي ، وتقف بموجاته حيث تستطيع ان تقف بها من شرق الارض وغربها ، في سلسلة طويلة من الصراع بينها وبينه تركت آثاراً سيئة في حياة المسلمين العامة ادت نتائجها الخطيرة الى انتقال السلطان من ايديهم الى ايدي خصومهم وتغلب هؤلاء على اوطانهم كما هو معروف .

وفي الحق ان ما ترتب على هـذا الصراع السافر من نتائج سياسية وعقلية وروحية واجتماعية ، بعد عصور طويلة من نشأة الاسلام ، ما كان ليكون بجملته وتفصيله عـلى هذا النحو لو سلم الاسلام من الآفات التي تناولته ونفذت اليه بوسائلها الكثيرة كما تنفذ الامراض الخبيثة الى الجسم الحي لتبيده .

نفذت هذه الآفات الى الاسلام بوسيلتين منفردتين في الظاهر متحالفتين في الباطن ، وهما وسيلة السياسة ووسيلة الدين ، وطالما ظهرت الحركات السياسية متبرقعـــة ببراقع الدين او المذهب لتخفي وجهها ووجهتها وتنفـذ الى ما تشاء من مآربها تحت ستار اسمه وانتحال عقيدته .

وبدأت الحركات الاولى بمحاولة قلب الدولة الاسلامية ، وهي فتية غضة لم يستو بعدُ عودها ، ولم تنشب جـذورها ، فشرعت بالائتمار بالخلفـــاء الراشدين ، وظهر ذلك اول ما ظهر بالمؤامرة

اليهودية المجوسية التي نفذها ابو لؤلؤة الفارسي فقتل عمر بن الخطاب رضوان الله عليه .

فلما اخفقت في تحقيق غايتها بهذه الوسيلة ، عمدت الى اثارة الفتن الداخلية وتمزيق الوحدة الاسلامية بانشاء الاحزاب السرية والعلنية ، والتحزب للأسر الكبيرة في الاسلام ، ونشر فكرة الحق الالهي في الدولة ، وابطال الشورى ، فنشب الصراع على الخلافة ، واستتبع ذلك انتقال الحكم من يد الى يد بعوامل العصبيات القبلية والمذهبية . وبذلك دخل اول الوهن على الوحدة الاسلامية ، وما زال يقوى والوحدة تتجزأ حتى انقسمت المملكة الاسلامية بين ملوك الطوائف . وظهرت حركات الملاحدة والقرامطة والباطنية في احشاء البلاد وهم يعيثون في الاسلام وفي الدولة ويهزون المملكة هزاً بالغيلة والفتك بالخلفاء والملوك والعلماء الى ان اكتسح المغول الشرق الاسلامي .

وكان اخطر ما قامت به هذه الحركات في توجيهاتها الخفية ، هو العمل على تحويل توجيهات الاسلام الروحية وتشريعاته ونزعاته عن مجاريها العالمية تحويلاً تنتهي به الى اضعافه واماتة حيويته ليمكن لها من احياء عصبياتها القديمة ، واعادة سلطانها الذاهب الذي تحنّ اليه ، وشفاء صدرها من الاسلام .

فعمدت – اول ما عمدت – الى الأصل الذي عليه يقوم بناء الاسلام ، وبه يتحقق وجوده ، ومنه تتفرع وجهاته في العقيدة والشريعة والدولة والحياة . وهو التوحيد الخالص . فأرادته ان يكون شركاً خالصاً من نوع شركها القديم ، ووثنية حقيرة من

جنس وثنياتها الاولى .

وتفرع من سعيها في افساد هذا الاصل الاعظم في الاسلام ، ونجاحها فيه نجاحاً كبيراً على مر الايام ، سعيها في تشويه حقائق معظم الامور التي تترتب عليه ، وتغيير صورها بتحريف وجهاتها والابتعاد بمقاصدها ونزعاتها عن مفاهيمها الحقيقية .

وكان من وسائلها الكبرى الى ذلك ، الوضع وتمحّل التأويل لنصوص الكتاب والسنة ، وجعلُ ظواهر وبواطن للقرآن وأحكامه ، واضافة البدع والمحادثات الى الدين والعبادات ، واشباع الأذهان بالخرافات والقصص والاساطير الاسرائيلية ، والترويج لضروب من الآراء الباطلة والنوازع الضارة ولا سيما نوازع التفرق التي لم يُبعث الاسلام الا لاستئصال مناشئها وانقاذ العالم الانساني من شرورها وآثامها بجعل الدين كله لله وحده لا شريك له في وحدانيته ، ولا ندّ له ولا منازع في سلطانه ، ولا سبيل لأحد من خلقه على خلقه سواه .

وما زالت تدأب في ذلك ونحوه حتى استطاعت ان تحيل الاسلام على تراخي الايام اسماً على غير مسماه ، وحملت جماهير المسلمين على ان يألفوا رويداً رويداً صورة له يتنكر لها الاسلام الصحيح اشد التنكر ، ومفاهيم له فاسدة تخالفها ظواهر أصوله ونصوصه اشد المخالفة ، حتى عاد كثير مما كان معروفاً عند اوائلهم منكراً لديهم ، وكثير مما كان منكراً عند اولئك معروفاً عند هؤلاء .

ولا غرابة في ان ينتهي الامر بالاسلام الى هذه الغاية ، بعد

ان نعلم نتائج حركات هؤلاء في الداخل من جهة ، وآثار صراع الاسلام وراء حدود بلاده وفي قلبها من جهة اخرى ، في اضعاف الامة الاسلامية ، وفشوّ الآفات الاجتماعية بين المسلمين .

ومن اخطر هذه النتائج :

انتقالُ السلطان ، بذهاب اهل الاجيال الاولى من الصرحاء الخمس المتشبعين بروح الرسالة ومطامحها العليا ، الى ايدي الموالي والهجناء من رواسب الامم الذين طواهم الاســـلام في عبابه ، وانتحلوه انتحالاً ظاهرياً ، وبقيت تعتمل في صدورهم الاحنة عليه والبغضاء له .

ومنها : فشوّ الجهل والامية والاستعجام .

ومنها : انتهاء ازمّة التوجيه الروحي والفكري ، تحت تأثير هذين العاملين ، الى المتصوفة واشباه الفقهاء . وقد نشأ هؤلاء في ظلال هذا الفساد ، وورثوا تلك الصورة المشوهة للاسلام كما صاغها اعداؤه ، ولم يكن لهم من الذكاء وحرية الرأي وسعة العلم ما يعينهم على التحقيق والتمحيص ، فاقتنعوا بصدق الصورة التي نُقلت لهم عن الاسلام ، وألفوها منذ نعومة اظفارهم وشبوا عليها وشابوا ، وزادوها فساداً بجمودهم وفساد تخيلاتهم وابتعادهم عن مصادر الاسلام الاولى ورجوعهم في كسب معارفهم الدينية الى كتبٍ من كتب ذلك الرعيل ، وهي كتب مذهبية بحتة املاها التعصب الخالص ، فلم تكن في الدين بذات روح ، ولا في الدنيا بذات طموح ، وشُغلَ الناس بالجدل المذهبي ومقالات اهل النحل والملل ، ومذاهب الروح وفلسفة الاشراق ، ومسائل الاتحاد والحلول

ووحدة الوجود ، فحجب ذلك عنهم دينهم ولم ينفعهم في دنياهم شيئاً . وأثرت الطرق الصوفية في الافكار تأثيراً سيئاً ، وكان من هذه الطرق ما يصطنع نظام الدرجات المتصاعدة في المذاهب السرية ، ومنها ما يصطنع الدعوة الى الزهد والانقطاع الى الله ، ويُرغب الجماهير في الفقر والمسكنة ، ويستكثر بمعاونة الطبقات الحاكمة من الرُّبُط والتكايا والزوايا ، فيقصدها المتبطلون من كل صوب ليسقطوا على الفتات من صدقات الحاكمين والاغنياء ، ثم ليجأروا بالدعاء لهم ان يطيل اعمـــارهم باسطُ الارض ورافع السماء .

وقد كان سلطان طوائف المتصوفين ، في العهود الاخيرة خاصة ، اقوى سلطان على عقول الجماهير ، وكان مسلكهم الوضيع يجري على هوى الطبقات الحاكمة في حجب الابصار عن ترفهم وباطلهم وتعسفهم ، فوطد للمظالم وللاستبداد ، ووقف في وجه الاصلاح والمصلحين ، كما حلل طاقـــة الامة ، وقعد بقواها عن السعي ، وعقولها عن الابتكار ، وثرائها عن الاستثمار . ولسنا نود ان نتحدث عن آثارهـــا في تشويه الاخلاق ، وافساد المعاملات ، وتزوير الدين ، واحالة العبادة والتقوى فيـــه الى رقص ومكاء وتصدية ورياء ومظاهر مزورة ، خشية ان لاننتهي منهـا ونحن نريد الاقتضاب .

وبهذا الذي ذكرنا وغيره مما لم نذكر ، بلغ المسلمون غايـة التأخر في الدين والدنيا ، وعرضوا انفسهم للعقوبـة التي يكتبها الله على المنحرفين عن هدايته ، اذ انقطع سندهم بالروح الواعي

الذي كان يثـــير اسلافهم الى العظائم ، كما انقطع سندهم بالعلوم العملية التي تسخر للأمة قوى الطبيعة ، وتسخرها لمصلحتها وبقائها وخلودها ، فكان انقطاع سندهم بهـذين الامرين وانصرافهم الى ما وصفناه من الشؤون مدعاة ضعفهم المعنوي والمادي ، وكان ضعفهم المعنوي والمادي علة سقوطهم .

على أننا ، وقد انتهينا في رسم هذه الصورة للحياة الاسلاميـة المتأخرة الى هذه الغاية ، نرى من الحق علينا ، بل من مستلزمات بحثنا في وجهـــات الاسلام الحديثة ، أن نكشف عن حقيقتين تاريخيتين لا خفاء بهما على من يتقصّـون التأريخ وينفضون احداثه ، نعتقد انهما أمسكتا العالم الاسلامي أن ينهار ، والاسلام ان يزول ، من اية صدمة من الصدمات التي قرعته . فان لم يكن من الانتفاضات الداخلية ومفاسدها ، وهي من اعظم ما مُني بـه نظام من أنظمة العالم من اعدائه وجهلة أهله معاً ، فمن غـارة المغـول التي أبادت الحرث والنسل واحرقت اليابس والاخضر ، وان لم يكن لا من هذه ولا من تلك فمن الغارات الصليبية التي انثالت بها جيوش أوربة كلها بقضّـها وقضيضها عليه موجةً في إثر موجة مدة قرنين كاملين . وان لم يكن لا من تينك ولا من هذه فمن الكارثة الاوروبية العظمى التي بدأت طلائعها قبل قرنين الى ان أطبقت عليه في الحرب العالمية الاولى وما زالت ممسكة بخنـــاقه .

وهاتان الحقيقتان انما ترجعان – في واقع الامر – الى بقاء القرآن نفسه بنجوة من كل هذه التيارات سليماً لم يمسسه سوء ،

وعملِه في نفوس المسلمين بما تثيره تلاوته من شعور سليم يحملهم وتصحيح المواقف التي كانت تدفعهم اليهـا الدسائس والحركات الهدامة دفعاً، على اختلاف حظوظهم من تلاوته وفهمهم لما يتلون.

ونحرص على ذكرهما لما يترتب عليهما من اثر في تبيان وجهات الاسلام الحديثة والاسلوب الذي تسير عليه.

أما الحقيقة الاولى فتتجلى في المظهر العقلي العام للمجتمـع الاسلامي في تلك العصور على ما اصابه من فساد، وقد كان دوام هذا المظهر سليماً الى حدٍّ ما امتداداً لوراثة التوجيه القرآنيّ للمجتمع الاول وللسماحة التي اتصف بها الاسلام واثرت اثرها في نفسية المسلمين وعقليتهم، فكانت فيهم غريزة أو كالغريزة الموروثة اذا تعمدها التوجيه الفاسد بموبقاته كان فيها القدرة على الاعتصام باصالة طبيعتها.

ولعلّ وجه هذا المظهر يبدو واضحاً بالمقابلة بينه وبين المظهر العقلي العام لاوربة في عهد الرينسانس، عهد الانبعاث والحياة، فقد تبيح لنا هذه المقابلة أن نعدّ ما بلغه المجتمع الاسلامي من الجمود العقلي في أشد عصور تأخره طوراً من اطوار الاصلاح الذي بدأتـه اوربة يومئذٍ. فلم يشهد هذا المجتمع ما شهدته أوربة من تحجر العقل وشلل الفكر وجدب الروح، وقسوة الضمير في مصادرة الحريات والضراوة في ابادة الكتب ومحاربة العلم والعلماء، وانزال اقسى العقوبات واقصاها بالمفكرين من اجل افكار تبدو لنا عادية كانوا يعلنونها في سبيل الاصلاح والتجديد. ويذكر التأريخ ان عدد الذين عوقبوا على آرائهم في اوربة بلغ ثلاث مئة

الف ، أُحرق منهم اثنان وثلاثون الفاً أحياء ، كان منهم العالم الطبيعي برونو Brunoe وقد نُقمت منه آراء أشدها قوله بتعدد العوالم فحكم عليه بالقتل وأحرق ميتاً . وعوقب العالم الطبيعي الشهير غاليليو بالقتل لأنه اعتقد بدوران الأرض حول الشمس ، وحُبس دي رومنس في روما حتى مات ثم حوكمت جثته و كتبه فحكم عليها بالحرق وأُلقيت في النار لأنه قال ان قوس قُزَح ليست قوساً حربية بيد الله ينتقم بها من عباده اذا اراد ، بل هي من انعكاس ضوء الشمس في نقط الماء . وأصاب جيوفت في جنيف ، وفايتي في تولوز ما أصاب هؤلاء وحُرقا شيّاً على النار لاراء لا تستوجب حتى التعزير ، ان لم نقل تستوجب الاحترام والتقدير .

ولا جدال في أن تأريخ الاسلام لم يعرف هذ الاضطهاد الشنيع لحرية الفكر والعلم الذي عرفته أوربة . والاحوال النادرة التي عوقب فيها رجال على آرائهم تعد شاذة جداً في المجتمع الاسلامي ، وكانت الى ذلك تتلبس بها بواعث سياسية خطيرة تعتمد قلب الدولة والقضاء عليها كالذي كان من قتل الحسين بن منصور الحلاج ، وهو رجل مجوسي الأصل من اهل بيضاء فارس ، اشتغل بالمخارق والحيل ، وادعى العلم بالاسرار ، ثم تناهى الى ادعاء النبوة ثم الربوبية ، واستغوى غلمان قصر المقتدر العباسي لينفذ بهم الى تحقيق غايته ، فادى ذلك الى قتله . وذكر إمام الحرمين في كتابه « الشامل » انه كان بين الحلاج وبين الجنابي رئيس القرامطة اتفاق سري على قلب الدولة ، وان ذلك

هو السبب الحقيقي في قتل الحلاج . وهذا ، كما يُرى ، باب آخر يتعلق بحماية الامن وحفظ النظام وسلامة الدولة ، وهو غير ما نحن فيه .

ونكتفي بهذه الامثلة اليسيرة من ذلك ، ونحسبها كافية في الموازنة الفاصلة لاظهار صورة تأخر المسلمين العقلي على حقيقتها حين نضعها الى جانب هـــذه الصورة من تأخر الاوربيين على سبيل القياس والتمثيل بما يجاري الواقع ولا يجانف مذاهب الصدق .

وأما الحقيقة الاخرى ، فهي اتصال تاريخ الاصلاح والتجديد في الاسلام ، في مختلف عصوره . فمن ملوك من طراز الفاتحين الاوائل في دينهم وتقواهم وفي سيرتهم وأخلاقهم ، يظهرون في الفترات ، ويسعون في اعادة شباب الاسلام وإقامة حكومة اسلامية على منهاج الخلافة الراشدة .. الى علماء مصلحين رافعين لمشاعل التجديد ، ثائرين على البـدع والمحدثات التي غيرت وجه الاسلام ووجهته ، ينعون على المسلمين انحرافهم عن سنن القرآن ، ويدعونهم الى الرجوع الى الاسلام الصحيح في صورته الحقيقية قبل ان تعدو عليه الشعوبية ومسلمة اليهود وأضرابهم بالافساد والتشويه .

وبذلك كانت مشاعل الاصلاح في المجتمع الاسلامي متسلسلة يتقد بعضها من بعض . وكانت اضواؤها تختلف سطوعاً وخفوتاً على قدر طاقة مشعليها ، ومرجعها جميعاً في أخذ أقباسها الى أصل الدين ، وهو القرآن وكونه حياً محفوظاً من التحريف والتبديل ، عالياً مناره ، متألقةً أشعته . وما زال الكتاب والسنة الصحيحة يبعثان في نفوس الاذكياء المثقفين الثورة على الوثنية والبـدع

والمحدثات ، والثورة على ترف المترفين واستبداد الملوك ، والثورة على الجمود والتقليد ومجانفة الفطرة وسنن الطبيعة التي لا تبديل لخلقها كما سنرى أمثلته في التجديد الحديث .

ولقد كان لاستمرار هاتين الحقيقتين في العالم الاسلامي أعظم الأثر في بقائه متماسكاً وفي حفظ الاسلام من الزوال .

تلك هي الصورة المصغرة للعالم الاسلامي حين استيقظ الغرب وطفق يبحث عن مجالات غنية ليبسط عليها سلطانه ونفوذه ، ويغذي حضارته المادية بمعادنها وخاماتها وبترولها ، ويفتح فيها لاقتصادياته وتجاراته أسواقاً تستهلك منتجاته وتنمي ثروته .

*

أما مشكلات الاسلام الحديثة ، فهي ناشئة من الاحتلال الاوربي ، وهي تكمن وراء طبيعة الاحتلال ووسائله في تثبيت أقدامه في دياره ، ومنها تنطلق أسبابها وبواعثها ، ثم تأخذ صبغاتها المختلفة ، وتتكاثر وتتعقد لتستحيل الى امراض متوطنة تنهك المجتمع وتحل طاقته وتبطل مقاومته .

وقد دهم الغرب بلاد الاسلام ، وحمل معه اليها مظاهر حضارته ومذاهبه في الدين والاجتماع ومنازعه في السياسة والاقتصاد ، وأذواقه في الفنون والآداب ونوازع الحياة ، فأخذ الناس من كل ذلك بحظوظ تختلف باختلاف حظوظهم من الاتصال بها او القرب منها والبعد عنها ، ففتن بها أناس يسرفون في حسن الظن والتقليد ، وعدّوها خيراً كلها فاندفعوا يقتبسون من ظواهرها ما يستطيعون اقتباسه ، ومن منازعها ما يسهل أخذه ، لا يعدونه أو قلما يعدونه

الى ما وراء ذلك من استبطان الدخائل وتعمق الاصول والغايات. وانكرها أناس فازوروا عنها ، وعدّوها شراً كلها فلم يأخذوا منها شيئاً ، وحاربوا منازعها لانهم يزدرونها ويمقتونها مقتاً ظاهراً. ووقف آخرون موقفاً وسطاً ، لا يندفعون مع اولئك في التقليد ، ولا يشايعون هؤلاء على الازورار ، وإنما يلاحظون الظواهر ويتعمقون البواطن ويرصدون الوجهات والغايات ، ثم يعرضون ذلك كله على العقل والمثل القومية والدينية فيأخذون منه أشياء ويرفضون أشياء ، ثم يلائمون بين ما يأخذون وبين مزاج الفكر الاسلامي واصوله ، ويضفون عليه من ذلك روحاً جديداً يجعله ملكاً خالصاً للحياة الاسلامية . وبهذا زاد هؤلاء في ثروة الفكر من ناحية ، وأضعفوا من تقليد الفريق الاول كما خففوا من حدة الفريق الآخر من ناحية ثانية ، بل صنعوا اكبر من ذلك فأبطلوا مع الايام كثيراً أو قليلاً من آثار نوازع الاحتلال في استخدام وسائله المادية والمعنوية في تغليب هذه الحضارة ومرافقها على الحضارة العربية الاسلامية للاستعلاء بها على الاسلام وحضارته .

ولكن الاحتلال لا يقف ولا يكف عن المضي في سبيله الى غايته ، والحضارة عنده ليست غير وسيلة من وسائل تثبيت اقدامه في الديار المحتلة الى آخر الزمان !

وقد كان هدفه - ولا يزال - إذابة شخصية المحتلين في هذه الحضارة ، وتغيير ما بانفسهم من روح الاعتزاز بعقيدتهم او التعلق بتاريخهم او الاكبار لحضارتهم تغييراً يسلمهم الى الخضوع لارادته والاستسلام لسلطانه ، والفناء في مذاهبه فهو يعلم من سلطان

كل اولئك على نفوسهم الشيء الكثير ، ويعلم انه لن يستطيع ان يؤدي عمله ، وينتهي الى غايته ، وينجح نجاحاً تاماً الا اذا مهد له السبيل بتوجيهات خاصة ومنازع جديدة تقطع صلة المسلمين بدينهم وتضعف نوازعهم الى الاستقلال عنه والتمرد عليه .

فسعى الى ذلك – اول ما سعى – بالتبشير ، وكان يظنه سلاحاً نافذاً ، فلم يثمر له اية ثمرة ايجابية ، وذهبت مساعيه في نشره ادراج الرياح ، ووجد ان المسلمين غير محتاجين الى من يهديهم الى عيسى عليه السلام ، فهم يؤمنون بعيسى ومريم وبجميع التعاليم المعقولة في المسيحية ، ويبرئونه وأمه من كل شيء كما يبرئه المسيحيون .

وحينئذ فكر في نشر التعطيل بين المسلمين ليكون الوسيلة الى قطع صلتهم بالاسلام ، فاسس لذلك مدارس خاصة كالمدرسة العظمى التي اسست في الهند لنشر تعاليمه وبث مبادئها في نفوس النشء المسلم . فضلّ كثيرون منهم ، واشربوا روح الالحاد في قلوبهم ، ولا سيما اولاد الامراء الذين كان معظم طلاب تلك المدرسة منهم ، وهال ذلك السيد جمال الدين الافغاني فألف رسالته المشهورة في الرد على الدّهريين ، وانتشرت الرسالة في طول البلاد وعرضها فأخرج كثير من امرائها اولادهم من تلك المدرسة ، ورجع آخرون عما كان خامر نفوسهم من التعطيل والالحاد .

وعلل السيد الافغاني مقصد المحتلين من ذلك بانهم رأوه أقرب وسيلة للوصول الى اغراضهم ، وتأييد سلطانهم في الهند ، وقال : « انهم وجدوا ان الديانة الاسلامية تطلب من اتباعها ان يكونوا

اصحاب الشوكة والسلطان في اوطانهم ، ولاحظوا ان ذلك هو طبيعة الاسلام التي لا يمكن انسلاخه عنها ، ولا انتزاعها من فطرة ابنائه ، ففكروا في امر يضعف اثر هذه العقيدة في نفوسهم ، فرأوا ان اقرب وسيلة الى نيل مرادهم هو نشر التعطيل بين المسلمين » .

ويشير مستر « جب » الى شبكة المدارس الاجنبية التي انتشرت ، من منتصف القرن التاسع عشر ، في معظم البلاد الاسلامية ، وتولت الدول الاوروبية تأسيسها فيها ؛ والى اثرهـــا في صياغة اخلاق التلاميذ وتكوين ذوقهم وإعدادهم للتأثر بالمؤثرات الاوربية ، فيقول في بعض كلامه :

« في اثناء الجزء الاخير من القرن التاسع عشر ، نُفذت هذه الخطة الى ابعد من ذلك بإنماء التعليم العلماني تحت الاشراف الانجليزي في مصر والهند . ولعل هناك نصيباً من الحق في التهمة التي ترمى بها هذه المدارس الاجنبية من انها مفسدة لقومية التلاميذ ، وان كنا لا نستطيع القول بان التطورات السياسية التي اعقبت ذلك في البلاد الاسلامية ايدت هذه التهمة . ولكن الذي فعلته بلاريب انها ربّت في التلاميذ خروجاً على الانظمة الاجتماعية وعلى السياسة الى حد ما في اوطانهم الاصلية . وبإضعافها من هذه الوجوه لسلطان النزعة الاسلامية القديمة على التلاميذ ، ادخلت في بناء المجتمع الاسلامي أداة هادمة ، وقطعت بعض الاواصر التي كانت تحفظ تماسكه » .

وفي هذه الاشارات الموجزة الى نتائج وجهة الاحتلال وأثر مساعيه في تغيير العقائد والانظمة الاجتماعية تظهر الاصول التي تنشأ منها كليات مشكلات الاسلام في هذا العصر ، وتنحو هـي

وجزئياتها الكثيرة في النواحي النظرية والعملية نحو نقض صرح الثقافة الاسلامية التالد من أساسه وتحطيمه تحطيماً شاملاً .

ومن اجل هذا نشأ الاستشراق في بلاد الغرب ، واخذ جماعة من الغربيين في كل دولة ذات مطامع استعمارية يعكفون على لغات الشرق وتأريخه ودينه دراسة وتأليفاً ونشراً ، وتلك هي الغاية التي يعملون لها ، ويثيرون من اجلها المشكلات بوجه الاسلام .

***

فهاتان هما الصورتان الموجزتان ، لم أبلغ منهما كل ما نريد ، ولكنهما على كل حال تُلقيان شيئاً من الضوء على الوجهات الحديثة للاسلام في هذا العصر .

ونبدأ بالموضوع نفسه ، فنقول :

لما باغتت اوربة العـــالم الاسلامي ، وبدأت تغزوه من يمينه وشماله ، وتتغلغل جيوشها في قلبه ، منذ القرن الثامن عشر — كان على الاسلام ان يلمّ شعثه ، ويحارب في ميدانين ، في الميـــدان الداخلي للتحرر من اغلال العصور الوسطى ، وفي الميدان الخارجي لردّ عادية المعتدين الغزاة .

فصاغت الاقدار في وقت متقارب جداً وجهته الى ذلك في مظهرين هما الاسلام كله ، ولا يكون الاسلام اسلاماً الا بهما مجتمعين ، مظهر مادي حربي ، ومظهر ديني روحي .

اما المظهر المادي الحربي فقـــد كشفت عنه الامبراطورية العثمانية والدولة العلوية بمصر ، حين سعى بعض الخلفـاء العثمانيين وساسة الترك الى اقتباس وسائل القوة والتنظيم الحربي والاداري

من المظاهر المدنية لحياة اوربة ، وسعى اليه كذلك محمد علي في مصر من الناحية الحربية والاقتصادية والعلمية والعمرانية على حظوظ مختلفة من التوفيق . وقد ارادوا جميعاً بعد ان لمسوا تفوق الغرب بوسائله الحديثة ان يتهيأوا للدفاع عن الوطن الاسلامي بمثل الوسائل التي يصطنعها . ولكن هذه اليقظة جاءت ، لسوء الحظ ، متأخرة جداً ، اذ كانت اوربة قد استكملت وسائل نهضتها خلال ستة قرون متقدمة توفرت فيها على الاصلاح والتجديد والانبعاث ، واخذت تعدو الى غايتها عَدْواً بل تطير اليها طيراناً وتتمخض صناعاتها الحربية كل يوم عن سلاح جديد تبادىء به اعداءها قبل ان يتمكنوا من الاستعداد للقائها .

وليس المهم في بحثنا ان نشير الى غَناء ذلك او عدم غنائه يومئذ ، وانما المهم ما نريد ان نشير اليه من دلالته العملية على وجهة الاسلام ومرونته ووفائه بحاجات كل عصر .

فان اسراع هاتين الدولتين الى ادخال وسائل الغرب ، بل قبول التنظيم الاوربي في الادارة والعمران والفن ، هو مظهر واضح لهذه الوجهة فيه والقابلية لديه . وهي وان تكن من البديهيات ، الا ان الجمود الذي مُني به بعض المسلمين والعصبية التي ابتلي بها غيرهم فرموا الاسلام بالعقم والجمود والعداء لكل جديد ، يجعلان من هذه الظاهرة البديهية حالة تستوجب التنبيه والدلالة عليها .

فما من شك في ان نظاماً من الانظمة كائناً ما كان نوعه وشكله ، لا يُكتب له التوفيق ما لم يكن له سناد من القوة .

واذا كان النظام شطراً فالقوة التي تسنده هي شطره الثـــاني ، وبدونها لا يُعدّ للنظام وجود . ومثلها مثل الجسم والروح اذا اجتمعا كانت الحياة والا فالموت .

ومن هنا حث القرآن المسلمين على إعداد القوة ما استطاعوا الى إعدادها سبيلا ، وان لا يقفوا تفكيرهم على قوة بعينها ، اذ الاسلحة والقوى تتنوع بتنوع الأزمنـــة وتطور العقل والعلم والصناعات ، يدل على ذلك هذه الآية (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) وهذا التنكير الذي في كلمة (قوة) ، والتنكير في نحو اللغة العربية يفيد استغراق الجنس كما يقول العلماء ، ويفسر لنا في هذه الآية إرادة التطور في مفهوم القوة باختلاف العصور ، كما توجب الآية تقصّي الاستطاعة الى أبعـــد مداها لاعداد الوسائل الصناعية والفنية لانتاج القوة .

وذلك ما ادركته العقلية الاسلامية حين رأت شيئاً جديداً وواجهت أمراً واقعاً لا سبيل الى دفعه الا بوسائله ، فانصرفت الى اعداد جيوشٍ لها كل ما للجيوش الحديثة من صفات الطاعـة والنظام وآلات القتال ، والى إعداد أساطيل في البحر كالـــتي يملكها الغرب ، ولكن الدول الاوروبية كانت اكثر عُـــدة واستعداداً وحيلةً . فالاسطول الفخم الذي بناه محمد علي أحرقته هذه الدول غيلةً في واقعة نافارين ، ثم تألبت عليـه ، وحالت بينه وبين اقتحام الاستانة لا حباً بالدولة العثمانية التي تعدها أعظم أعدائها ، ولكن تقليماً لأظفاز هذه الدولة الفتية التي خلفت نابوليون على مصر ، وقوي سلطانها وامتد جنوباً وشمالاً ، حتى عاد أمرها

مرهوباً يخشى من ظهوره وتغلبه أن يكون عاملاً جديداً في صدّ اوربة عن وجهتها ، وقد يستطيع أن يجمع كلمة المسلمين ويقضيَ على طغيانها. ثم كان من دسائس أوربة بعد وفاة محمد علي ما أضعف خلفاءه ومهّد لاحتلال مصر . وبذلك أزالت هذا العامل الخطير والمنافس الجديد ، ورجعت الى منافسها القديم الذي تظاهرت بحمايته من محمد علي ، فلم تترك سبيلاً تنفذ منه للقضاء عليه الا سلكته ، حتى أخمدت أنفاسه في الحرب العالمية الأولى .

ومن هنا زالت من وجه أوروبة القوة التي أقضت مضاجعها عصوراً طويلة وأثارت جنونها منذ احتل محمد الفاتح القسطنطينية وتغلغلت الجيوش العثمانية في البلقان الى أن نطحت جيوش سليمان القانوني أسوار فينة ، فتداعت الدول الاوروبية الى حلف سارت بتنفيذ خططه رويداً رويداً حتى أدركت غايتها على نحوٍ ما .

ونقول : « أدركت غايتها على نحوٍ ما » ؛ لأننا نعتقد ان القوة لا تتمثل بآلات القتال وحدها ، وان إشهار السلاح دائماً غير ممكن لكل احد ، وان وراء هذا النوع من القوة قوى أخرى بها توجد اذا فُقدت ، وهي بيد الاسلام في هذا الشرق ، والوجهات الجديدة تُري المتأمل كيف هو يدركها ، وكيف يسعى في توفيرها لنفسه سعياً جامحاً ليس من السهل كبحه بعد اليوم .

وأدع الاطالة في هذا الشأن ، لأنتقل الى المظهر الثاني من المظهرين اللذين هيأتهما الاقدار في مطلع العهد الجديد ليَقظة الاسلام ، وهو المظهر الديني الروحي .

وأعني به تلك الحركة الدينية العنيفة الـــتي نشأت في جزيرة العرب ، في اثناء القرن الثامن عشر ، فلفتت اليها العالمَ الحديثَ في الشرق والغرب ، واضطرته ان يُعنى بأمرها .

وهي حركة « الوهابيين » التي احدثها الشيخ محمد بن عبدالوهاب وقد عاصرت فتح نابوليون لمصر ، وكانت خليقـــة بأن تدعى « حركة المحمديين » نسبة الى باعثها وطبيعة دعوته الى التوحيـد الخالص الذي بُعث به رسول الله محمد بن عبدالله صلى الله عليـه وسلم ، ولكنها نُسبت الى أبيه ، وأبوه لا يَدَ له فيها ، لأمرٍ ما أرادته السياسة العثمانية واشياعها حين أشفقت من انتشار سلطانها أشدّ الاشفاق ، فقاومتها ما وسعتها المقاومة ، وبالغت في تشويه غايتها ، وعَزَتْها الى الابتـــداع والخروج على الدين ، وجعلت هذا النبز عنواناً على ما تزعمه من ضلالها .

وندع التاريخ السياسي لهذه الحركة ، لنفرغ لوجهتها في الاسلام كما تهدي اليها كتب زعيمها ودراسات الباحثين المحايدين من الشرقيين والغربيين . والمجمع عليه أن هذه الحركة في الاسلام جديدة قديمة معاً ، والواقع انها جديدة بالنسبة الى المعاصرين ، ولكنها قديمة في حقيقة الامر ، كذلك يقول طه حسين في « الحياة الادبية في جزيرة العرب » وهو يوضح ذلك بأنها « ليست إلا الدعوة القوية الى الاسلام الخالص النقي المطهر من كل شوائب الشرك والوثنية ، هي الدعوة الى الاسلام كما جاء به النبي خالصاً لله وحده ملغياً لكل واسطة بـين الله وبين الناس ، هي احيـاء للاسلام العربي وتطهير له مما اصابه مـن نتائج الجهل ومن نتائج

الاختلاط بغير العرب . فقد انكر محمد بن عبد الوهاب على اهل نجد ما كانوا قد عادوا اليه من جاهلية في العقيدة والسيرة . كانوا يعظمون القبور ، ويتخذون بعض الموتى شفعاء عند الله ، ويعظمون الاشجار والاحجـــار ويرون أن لها من القوة ما ينفع وما يضر . وكانوا قد عادوا في حياتهم الى حياة العرب الجاهليين ، فعاشوا من الغزو والحرب ،ونسوا الزكاة والصلاة ، واصبح الدين اسماً لا مسمى له . فأراد محمد بن عبد الوهاب ان يجعل من هؤلاء الاعراب الجفاة المشركين قوماً مسلمين حقاً على نحو ما فعل النبي باهل الحجاز منذ اكثر من احد عشر قرناً » .

ثم يقول : « ولولا ان الترك والمصريين اجتمعوا على حرب هذا المذهب ، وحاربوه في داره بقوى واسلحة لا عهد لاهـــل البادية بها ، لكان من المرجو جداً ان يوحد هذا المذهب كلمة العرب في القرن الثاني عشر والثالث عشر للهجرة ، كما وحـــد ظهور الاسلام كلمتهم في القرن الاول » .

ويمضي على هذا السَّنَن في بيان اثره في الحياة العقلية والادبية عند العرب من نواحي مختلفة ، وفي ايقاظ النفس العربية ، وما وضع امامها من مَثَل اعلى احبته وجاهدت في سبيله بالسيف والقلم واللسان ، وما افاد العالمُ العربيُّ كله من هـــذه الحركة العقلية الجديدة ، وهو كلام يحسن الرجوع اليه في هذه الرسالة .

ويقول لوثروب ستودارد الاميركي : « ان هذه الثورة التي اشعلها محمد بن عبد الوهاب فاشتعلت واتقدت ، اندلعت ألسنتها الى كل زاوية من زوايا العالم الاسلامي ... فتبدت تباشير صبح

الاصلاح ، ثم بدأت اليقظة الكبرى في عالم الاسلام ».

والمتقصي لأطوار الاصلاح في العالم الاسلامي ، وعلاقة بعضها ببعض ، يرى في هذه الثورة امتداداً لانتفاضات قديمة عرفتها العصور الاسلامية في آثار ابن حزم في الاندلس ، ثم في ثورات اتباع الامام احمد بن حنبل ببغداد حين كانوا يرون ما يتعرض له الاسلام من لوثات اهل البدع والاهواء وما يتهدد المجتمع من سرف المسرفين في الشهوات والموبقات ، ثم في انتفاضة شيخ الاسلام تقي الدين احمد بن تيمية في بلاد الشام في القرن الثامن الهجري ، وهي اروعها تجديداً وابعدها اثراً في اصلاح الفكر الاسلامي . ومن كتب ابن تيمية وتلاميذه ابن القيم وابن قدامة وابن كثير وغيرهم اقتبس محمد بن عبد الوهاب جذوته الاصلاحية ، فدرس القرآن والسنة دراسة متجردة من اوهام المحرفين واهل الاهواء ، بعثته الى هذا التجديد الذي وفق فيه توفيقاً لم يُكتب لاولئك ، لانهم قد خذلتهم السياسات ، ووجد هو من السياسة حماية له ومن قوتها نصراً لدعوته ، فكان له هذا الاثر البعيد الذي يصفه لوثروب ستودارد في عالم الاسلام الحديث ، وهو اثر يطول شرحه جداً اذا تقصيناه في مصر والشام والعراق والحجاز واليمن وبلاد شمال افريقية والهند وتركية وغيرها ، والمهم فيه نتيجته من حيث انه وضع صورة الاسلام الاولى في نصابها التام من الحقيقة ، ثم تأثير ذلك في نفسية المسلمين وتوجيهها الى المثل الاعلى ، ثم تأتي من بعد هذا وذاك دلالته على الحيوية الكامنة في الاسلام وعلى ما يجيش في نفسه من ارادة الحياة

الراقية للمسلمين ، وان كان لايزال يجدمن جهلاء المسلمين وبعض حكامهم وساستهم وعلمائهم ايضاً ازوراراً عنه حيناً ، وحرباً عليه وذوداً للاصلاح حيناً آخر ، لغايات في انفسهم لم يصهرها الزمن ولم يطهرها من لوثاتها الموروثة بعد .

ولما تجسم للدولة العثمانية ولمفكري الاسلام بعد هـــذا العهد شبح المسألة الشرقية التي نجمت منذ سنة ١٨٢٥م ، بتفاقم التدخل الاوربي السياسي والاقتصادي في البلاد الاسلاميـــة ، وادركوا جميعاً ان حلول الكارثة العظمى غير بعيد عنهم ، وان عليهم ان يستنفروا الرأي الاسلامي العام ،ظهرت حركة الجامعة الاسلامية . وكان المسلمون في كل مكان يتلهفون الى العثور على وسيلة تعينهم على ان يستعيدوا سلطانهم على مصاير امورهم ، فاستجابوا لهـــا بحماسة فائقة ، والتمس الزعماء الوسيلة في الشعور بالوحدة الدينية ، وهي اكبر قوة مشتركة بين المسلمين تنظم شتاتهم وتجعل منهم قوة مرهوبة يحسب حسابها في الصراع الدولي اذا احسنوا معهـا العمل على اتخاذ الوسائل الحديثـة المجدية ، وكثر انصار فكرة الجامعة الاسلامية من المفكرين ، وسعوا لها طوال القرن التاسع عشر ، وبلغت ذروتها في عهد السلطان عبد الحميد الثاني ، وكان اكبر دعاتها في العالم الاسلامي السيد جمال الدين الافغاني وعبد الرحمن الكواكبي والشيخ محمد عبده ، واعظم مؤيديها مسلمو الهند الذين شعروا بعد زوال دولتهم على يد شركة الهند الشرقية البريطانيـــة بحاجتهم الشديدة الى التأييد الخارجي امام خطر الهندوكية والاستعمار البريطاني .

وما من شك في ان حركة الجامعة الاسلامية هذه قد نجحت مقدماتها نجاحاً تاماً من حيث استطاعت ان توقظ الشعور بالوحدة الاسلامية وتقوّيه تقوية لم يسبق لها مثيل منذ عصور ، وقدّم المسلمون في انحاء الارض كل الدلائل الحسية على تأييدها وشد أزرها ، وكان مقدراً لها ان تنجح بنتائجها لولا عوامل كثيرة كانت تكمن وراء طبيعتها والاستجابة لها ؛ واهمها ما كان يعوزها من الملاءمة بين سياستها ووسائلها وبين القوى الجديدة التي كانت تجتاح العالم الاسلامي ، ولم تكن الدولة العثمانية يومئذ قادرة على تحقيق هذه الملاءمة بوجه من الوجوه ، فسياستها في الحقيقة كانت قائمة على خداع دول أوربة وتخويفها بشبح اعلان الجهاد في العالم الاسلامي ولم تُعدّ له وسائله المنجحة ، واقتصادياتها كانت اقرب الى الافلاس منها الى الكفاف ، وصناعاتها الحربية وغير الحربية غير موفورة ، وادارتها قائمة على الاستبداد والرجعية كالذي ظهر في معظم حركات السلطان عبد الحميد الثاني وتوجيهاته وادى الى اسقاطه بعد ثلاثين عاماً من حكمه استطاعت اليابان بمثلها ان تكون امة ذات حضارة عظيمة وقوة هائلة تجاهد بها الدول الكبرى فتضرب روسيا وتنافس اوربة واميركة ، ولم يحسن عبد الحميد فيها من العمل غير سياسة التخويف وخنق مدحت ونفي الاحرار وتقريب الصيادي وتحذير الشعور العام بمخدرات التصوف وبرود تراب القبور بدلاً من ايقاظه بمنبهات الاصلاح ، وخنقه بدخان التكايا والزوايا بدلاً من احيائه بمنعشات القوة واصداء المعامل والمصانع تتجاوبها آفاق البلاد.

وكان شأن الممالك الاسلامية المستقلة الاخرى كايران والافغان شأن الدولة العثمانية في الحكم الاستبدادي المطلق ان لم يكن أفظع واقبح منه .

ولقد هال زعماء الفكر في الاسلام ما لمسوه من مفاسد هذا الاستبداد في المجتمع ، وما أدركوه من انعدام الاتساق بين منازعه وبين روح الاسلام وما يدعون اليه من الاصلاح وبعث حركة الجامعة الاسلامية ، وقدروا ان مساعيهم ذاهبةٌ ادراج الرياح حتماً مع تغلب الاستبداد وفساد الاوضاع الادارية والاجتماعية والسياسية ، فاتجهوا الى مقاومته ، وفضحَ السيد جمال الدين الافغاني ، وهو داعية الحركة الاكبر ، تصرفات الطبقات الحاكمة ، ودعا الى اقامة الحكم الشوروي ، وتعالت اصوات المصلحين باستنكار الاستبداد ، ذاهبين الى انه اصل لكل فساد ، ناعين على الحكام انحرافهم عن سبيل الاسلام في حكم المسلمين وادارتهم ، منبهين الى عواقب ذلك ، ولم يمنعهم ما علموه من تأصله في طبائعهم وتعذر اقلاعهم عنه من تنبيه المسلمين على مضاره ، وإثارتهم الى تقويض صروحه حتى قال في ذلك الكواكبي كلمته الرائعة المعبرة عن قوة يقينه وبعد مطارح أمله في صدر كتابه « طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد » : « كلمات حق وصيحةٌ في واد ، إن ذهبت اليوم مع الرياح فقد تذهب غداً بالاوتاد » .

ولقد ذهبت هذه الصيحات فعلاً بالاوتاد ، وطوحت بعبد الحميد وصولته ، وعملت افكاره وافكار بقية المصلحين عملها في توجيه العالم الاسلامي الى تغيير انظمة الحكم واصلاح نفسيات الحاكمين

كما افادت دعوتهم الى الجامعة الاسلامية بتأثيرها النفسي في المسلمين بما ايقظته فيهم من الشعور القوي بالوحدة الذي ما زال ماثلاً في كل ما تلاها من الحركات في البلاد الاسلامية ، وان اخفقت في بلوغ نتيجتها السياسية لما قدمنا من الاسباب .

وهكذا كانت مهمة زعماء الاصلاح الاسلامي ، منذ بداية عهد اليقظة ، تستهدف وجهتين : الهدم والبناء في وقت معاً ، ثم تقيم البناء على اساس مهم جداً لا يتم امر عظيم كالذي يبغونه بدونه ، وهو تغيير نفسية الشعوب الاسلامية وتحريرها من ركام المنازع الفاسدة والاهواء الدخيلة في الاسلام . وهو أساس ارشد اليه القرآن في قوله تعالى : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ، وبه نقل الرسول العرب من حال الى حال ، وعليه اقام عمود الاسلام .

وكان هؤلاء الزعماء يعلمون ان محاولة الاصلاح بالبدء بتغيير معالم الحياة الظاهرية وحده إنما هو أخذ بذنب الاصلاح لا برأسه ، وان ما يملأ جوانب النفسية الاسلامية من رواسب العقائد الباطلة يقف حاجزاً عالياً وسداً منيعاً دون بلوغ كل أمـــل في تغيير الاوضاع القائمة ما لم يُغيّر ويُملأ بالافكار القوية السليمة النابضة بالحياة كما يوحيها الاسلام الصحيح .

لهذا مضى كبار المفكرين في انتهاج خطة الاصلاح الديني على نحو ما صنع لوثر في الغرب ، وانتقل به الشيخ محمد عبده وتلاميذه وخلفاؤه في اواخر القرن التاسع عشر الى ميدان كان ارحب أفقاً واكثر ملاءمة للمواقف الجديدة التي دُفع اليها المجتمع الاسلامي

دفعاً ، وأمكنَ قدرة على حلِّ المشكلات الحديثة التي أثارها الغرب بتوجيهاته الى الالحاد والتشكيك في الاسلام ، او نشأت من مغالبة الثقافة الحديثة في أمهات مسائل المعرفة ، خاصةً في تركية ومصر والهند .

فبنوا منهاجهم الجديد على أصول راقية كان لها اكبر الاثر في توجيه النهضة الحديثة ، وتحرير الاسلام من أغلال الجمود ، وبعث المسلمين في سبيلهم الطبيعي الى التحرر من كل سلطانٍ عليهم غيرِ سلطان الله .

وكان في هذا المنهاج هدم ، وكان فيه بناء .

كان فيه هدم لأصول العوامل القديمة التي عدت على الاسلام بافساد جوهره وتغيير صورته ، ونقضٌ للشبهات التي يحوكها دعاة التعطيل الذين ربتهم مدارس الاحتلال ويرددها الشعوبيون ونفر من المستشرقين في الدين ورسوله ، والاسلام وأهله ، والعرب ومدنيتهم ، والقرآن وإعجازه ، والفصحى والعامية ، والحروف العربية والحروف اللاتينية ، الى آخر هذه السلسلة وفروعها المعروفة .

وكان فيه بناء وإحياء للعاطفة الدينية المهذبة يرمي الى تقوية الروح الاسلامي ، واعداده للصمود في وجه الحملات المغرضة المنظمة على الاسلام ودحرِها .

وقد تناولت هاتان الوجهتان من الهدم والبناء أمهات قضايا العقيدة والشريعة ، والمجتمعَ والنظامَ والتربيةَ والاخلاقَ ، وأصولَ التفكير ، وقواعدَ العمل في الاسلام . وحفلت دراساتها

بالتحليل والتعليل في تبيان وجهات الاسلام ، وكشفت عما هو منه وعما هو غريب عنه ومحمول عليه من العقائد والآراء ، كما حفلت بالبحث في ماضي الاسلام وحاضره ، وفي هدايته وارتقائه المعنوي وبعثه على الارتقاء المادي ، وفي موقفه من حرية الفكر والعقل والعلم والمدنية ، وفي مسالكه في السياسة والاقتصاد والحرب والسلم . وفي معالجته لقضايا الانسانية الكبرى ، وفي الصلة بينه وبين الاديان وادراكه للعلاقات الدولية وشمول نظرته للوحدة الانسانية وقدرته على النهوض بها والجمع بين الاجناس المختلفة والتسوية بينها في المكانة والعمل وتهيئة الفرص . وتناولت ذلك كله باساليب علمية قوية واضحة القسمات ، ونسقٍ من التفكير المرتب بجمع احسن ما في القديم والحديث .

هذه الحركة الخطيرة ظهرت في مصر ، فما لبثت ان جاوزت حدودها الى الهلال الخصيب بل الى العالم الاسلامي كله ، وكانت مجلة المنار سفيرها اليه ، حملت أفكارها اربعين عاماً الى بلاد العرب كما حملتها الى بلاد الترك والهند والصين وأرخبيل الملايو ، فاثارت اهتمام المسلمين فيها بالاصلاح الديني وكونه أصلاً يقوم عليه كل اصلاح .

وترددت اصداؤها في آفاق الاناضول ، كما ترددت في اندونيسيا والهند ، ففي اندونيسيا يذكر ك. ك. برج من تأثيرها في الشبان الاندونيسيين الذين يدرسون في الأزهر او في مكة ان هؤلاء جميعاً رأوا فيها الاسلام على نور جديد ، لم يروا فيه مثالاً للتشدد والجمود ؛ ورأوه لا يزال الدين المختار بين الاديان وحامل المثل

العليا لكل زمان مضى والمثل الجديدة لكل زمان آتٍ ، وهو متجدد الشباب ، حامل لواء كل تقدم ، شديد في تسامح ورفق قال : « واصبح الذين اقتبسوا من نور المنار في مصر « منارات » صغرى في اندونيسيا بعد ان عادوا اليها » .

وفي الهند تمخضت حركة فيها من هذه الحركة تشابه في المناشىء والمنازع والوجهات ، متأثرة بها ومستقلة بظروفها الخاصة ايضاً ، وكان ما أشرنا اليه في الكلام على الجامعة الاسلامية من شعور المسلمين فيها بالحاجة الى التأييد الخارجي امام خطر الهندوكية والاستعمار البريطاني قد اثارهم في الوقت نفسه لاصلاح الداخل ، فظهرت فيها حركات دينية واسعة النطاق تتابعت بين حين وآخر في اثناء القرن التاسع عشر ، وكانت كلها من طراز الحركة الدينية في جزيرة العرب التي شعارها « الرجوع الى القرآن » . وكان تتابع هذه الحركات تمهيداً لتلاقي النهضة الهندية بالنهضة المصرية والتأثر بها من غير شك . وقد انبعثت النهضة الهندية الجديدة بعد سنة ١٨٥٧ م ، بدأها السير سيد احمد خان بانشاء جامعة عليگره وندوة العلماء ، وتبع ذلك قيام جامعات وجمعيات قوية سارت بالاسلام الى هذه الوجهة ، فتلاقى شرقه بغربه ، وتعاونت افكار شبلي النعماني وسيد امير علي ومحسن الملك وصديق خان ومحمدعلي والسير محمد اقبال في جناح الاسلام الشرقي مع افكار جمال الدين ومحمد عبده وسعد زغلول ورشيد رضا والمراغي ومصطفى عبد الرازق والكواكبي والجزائري والقاسمي والألوسي ورفيق العظم وشكيب ارسلان وابن باديس في جناح الاسلام الغربي ،

فكان من آثار هذا التعـــاون هذه البواكير التي تشاهد في العالم الاسلامي .

وقد لفت اشراق هذه الحركة الواسعة انظار الشبان المسلمين المأخوذين بتوجيه اوربة في البلاد الاسلامية كافة - الى الاسلام، وكان فيهم ازورار عنه ، فاجتذبتهم اليه ، فألفَوْه في صـــورة اخاذة غير الصورة الكابية التي رسمت لهم ، ورأوا من حقائقه ما لم يخالوه فيه من قبل ، وبصروا بدساتير وآداب ومُثل تعلو فوق متناول المطاعن والشكوك ، ولم يروا فيـه جموداً كما لقّنوا ، وانما رأوا شبابا متجدداً وحيـــاة نامية ورفقاً وتسامحاً واخاء ومساواة وعدلاً ، فانجذبوا اليه ، وأُشربوا حبـه ، وهاموا فيه ، وأولوه ما يستحق من اهتمام ورعاية ، وتعلقوا باهدافه . ورأوا في قادته من قوة الشخصية وسعة العلم واصالة الرأي وما صحب ذلك من الحماسة المشبوبة في مناهضة الاحتلال الاجنبي مع صفاء الضمير وخلوص النية ما زادهم اعجابا وايماناً بالحق الذي يدعون اليه ، ووثقوا ان هذا الذي رسموه من مناهج الاصلاح الديني هو السبيل الموصل الى المطامح القومية والاماني الوطنية التي تجيش في صدور المسلمين والعرب ، وتظهر في منـاهضتهم للاستعمار ، فاندفعوا فيه ، واشرعوا اقلامهم في تبيـــان محاسن الاسلام ، معتبرين الاماني الوطنيـــة جزءاً منه لا تنفك عنه في حال من الاحوال .

وبهذا انداحت دائرة التجديد الاسلامي وامتدت الى نواحي شتى وآراب مختلفة . وقد كان جان جاك روسو والثورة الفرنسية

والفكر الاوربي الامثلة التي يحتذيها هؤلاء ، فأصبحت عبقرية محمد ومثل الثورة الاسلامية وسمو الفكر العربي هي المثل التي يلتمسون فيها الاصلاح والبعث . وكانت القيادة التوجيهية الى علماء الازهر وجامع الزيتونة ومسجد دهلي فأصبح خريجو الجامعات الشرقية والغربية شركاءهم فيها ، وكان نشاط العلماء الدينيين مقصوراً على أروقة المدارس والمساجد لا يتعدى منطقتها المقفلة فبسط هؤلاء جناحهم على باحات المجتمع كله ومدوه الى الجمعيات والمجامع والاندية والمؤتمرات والصحافة والتأليف والترجمة والنشر ، وكتبوا حقائق الاسلام في ضوء العلم الحديث بفهم مستقل ووعي عميق ، وواءموا بين الدين والحياة ، وعرضوا نظريات العدالة الاجتماعية والضمان الجماعي والتأميم والمذاهب الاشتراكية والشيوعية والرأسمالية على حقائق الاسلام ، وقابلوا بينها ، فأثبتوا قدرة الاسلام على مواجهة المعضلات بنفسه ، ولم ينسوا مع ذلك ان يتأملوا ويطيلوا التأمل في حضارة الغرب على انها وسيلة لا غاية ينتفع من مادياتها بما يمكن للاسلام من الظهور والاستعلاء .

كذلك أخذت هذه الحركات بعضها برقاب بعض ، وسلكت سبيل الاصلاح المترقي على حسب ما تقتضيه طبيعة النشوء ، وهي ماضية الى غاياتها في قوة وروية لتبلغ نتائجها المؤملة .

وقد تجمعت هذه الحركات بعد هذه المراحل في ثلاث وجهات كبرى تتلخص فيها جميع منازع الاسلام ، أنضجتها الاحداث ، وأبرزها الجهاد الطويل في سبيل تحرير الفكر الاسلامي من أغلال القرون القديمة وأغلال التقليد للفكر الاوربي ، وتكوين شخصية

مستقلة له يحقق بها حريته وحرية اوطانه .

هذه الوجهات هي : وحـــدة الاسلام ، ووحدة الاديان ، والوحدة الانسانية ؛ تأتي بعضها من وراء بعض وتكمل الواحدة الاخرى .

وقد تثير ملابسات الاحوال الحاضرة شيئاً من الاستغراب عند قوم ، وقد تثير شيئاً من الانكار عند آخرين في أمر هـــذه الوجهات الثلاث في الاسلام اليوم . ومن حق الذين يقفون عند بعض الظواهر دون بعض ، ويهملون التأمل في سلسلة الحركات الاسلامية منـذ قرنين ومناشئها ومناحيها والينابيع التي ترويها وتبعث فيها الحياة ، وما أصابت من توفيق ملحوظ ونجاح غير منزور ... نقول : من حق هؤلاء جميعاً ان يستغربوا ذلك أو ان ينكروه . ولكن الباحثين المتعمقين ممن يرصدون حركات المجتمع الاسلامي وتطوراته لا يملكون غير التسليم لهذا الذي نذهب اليه .

ويقرر ماسينيون انهناك ظاهرةً كثيراً ما يهملها الباحثون ، وهي ان الحركات الاسلامية تستعد في خفاء وصمت ، وتندلع فجأةً دون ان يسبقها نذير يمكن ان يرى ، وبعبارة اصطلاحية اكثر دقةً – كما يقول – نستطيع تحليل ما يقع بأن اول الادوار هو « دور النداء الباطن » الذي يهيب بالضمير الاجتماعي وان ظلّ في في حالة هدوء ظاهري ، أو ظلّ كما يعبر عنه في عرف طوائف مختلفة في حالة قعود أو تقية أو كتمان . واذا نضج هذا النداء ، تبعه الدور الثاني تواً ، وهو « دور الدعوة » لاسترداد ما تعطل من حقوق الشريعة ، وسبيل ذلك الجهاد . وهذا هو المفهوم الذي

يصدق على جميع الحركات عند مختلف الجماعات وفي مختلف الاوقات.

ولا جدال في أن اليقظة الاسلامية الحديثة قد اجتازت «دور النداء الباطن»، ودخلت في «دور الدعوة والتنظيم» في سلسلة من الحركات قامت في مختلف اقطار الاسلام من الساحل الاطلسي الى ارخبيل الملايو، وسارت قدماً نحو وجهتها لا تبالي ما تأخذها به اوربة من سياسات الدس او البطش او الارهاب، فنمت نمواً خطير الشأن في بعض الجهات، ودخلت في طور الاكتمال في بعض آخر، وخصائصها في كل جهة متشابهة وآثارها متماثلة: لانها تنزع عن قوس واحدة، وترمي نحو هدف واحد، ولا مفر من ان تتلاقى يوماً ما عند نظام موحد لدولة واحدة. وربما لا يعجب ذلك الدوائر السياسية الاوربية، او القانطين من ساسة الشرق، أو بعض ذوي الاغراض من أُجراء الاستعمار ونحوهم، ولكن الواقع هو هذا، لا ما يشتهيه هؤلاء.

أما الوجهة الى الوحدة الاسلامية، فانها ترجع بطبيعتها الى الاصل الاعظم الذي بني عليه الاسلام، وهو عقيدة التوحيد، وان شئت قلت وحدة العقيدة. ذلك ان علاقة وحدة العقيدة بوحدة الامة هي علاقة المسبب بالسبب والنتيجة بالمقدمات، فعقيدة التوحيد ألهمت العرب فكرة الحرية الشخصية والدينية، وحررت عقولهم من الوثنيات الموروثة، وجمعتهم على عقيدة واحدة ترفع النفوس عن الخضوع لكائنٍ من كان الا للواحد الديان.

ووحدة العقيدة الاسلامية كونت وحدة الامة الاسلامية، وحققت للاسلام الظهور والاعتلاء، وللمسلمين الاستخلاف في

الارض . وفي تاريخ الصدر الاول وتكوين دولة الاسلام شواهد ذلك وبيناته .

وافتراق العقيدة من بعدُ وما نتج عنه من تبدل حالة المسلمين العقلية والنفسية والاخلاقية ، أفسد مقومات الحياة الاسلامية ، ورجع بالمسلمين من الاسلام الى الجاهلية جهلًا وانقساماً وجموداً وموت همم ، واطمع متوثبة الشعوب ان يطغوا عليهم ويستعبدوهم في عقر اوطانهم .

وهذا ما جعل جميع الحركات الاسلامية تصرف جهدها الى هذا الاصل الاعظم وتوطيد بناء المجتمع الحديث عليه ، فعمدت — ولا تزال — الى خطة ناجحة في توحيد العقيدة وفي تربيتها ، من اظهر مميزاتها تشخيص حقيقة الاسلام بتطهيره مما ألصقته به الفرق المبتدعة والمذاهب الضالة والدعوة الى الاجتماع على القرآن اجتماعاً تبطل به هذه المذاهب قديمها وحديثها جملة ، وتتوحد العقيدة والاخلاق وجميع نظم الحياة ، وتعلو الاخوة الاسلامية ، وتكون حدود الاسلام هي وطن المسلمين ، انما المؤمنون اخوة والمؤمنون بعضهم اولياء بعض ، وما وسع السلف الصالح وكان مبعث عزهم وعلوهم يسع المسلمين في كل مكان وزمان ويكون مصدراً لاستعادة ما أضاعوه من المجد والسلطان .

وقد آتت هذه الدعوة أُكلها الطيب ، فزالت تلك الحدةُ التي اتسم بها اهل المذاهب الاسلامية القدماء ، وضعف الشعور بما كانوا يحسونه من الفوارق من قبل ، وظهرت في المجتمعات الاسلامية طلائع قوية للتسامح والتعاون على الخير في شؤون

الحياة وخاصة في منازع الوطنية والاستقلال مع ما ينفثه الاستعمار من سمومه لتفريق الصفوف على يد اجرائه ووكلائه ؛ وبـــدا واضحاً من أثرها في توجيه جمهرة المسلمين في كل مكان نحو التكتل وجعل الاسلام الصحيح اساساً للمجتمع الحديث ان حركة الوحدة الاسلامية قد اصبحت من اهم الحركات في العالم الاسلامي اليوم.

ولا يضعف من أمرها افراد مبعثرون هنا وهناك يقفون على طرفيها ولا يندمجون فيها . وهـؤلاء هم نَطـان من الناس بعض عناصر الطبقة المترفـــة ونحوها ممن أسرتهم الشهوات وعبدوا المـادة وفترت عزائمهم في دينهم وأهملوا أوامره ونواهيـــه ، وعناصر اخرى جاهلة كل الجهل يسمون أنفسهم مسلمين ولكنهم قـــد حيل بينهم وبين الاسلام الصحيح ولا يخرج دينهم عن مجموعة من الخرافات الساذجة وأباطيل الوثنية . ومثل اولئك وهؤلاء في خضم يموج بخمس مئـة مليون نسمة لا يُعتدُّ بهم في الوزن الصحيح للقضايا الكبرى .

أما الحركات الوطنية المحلية ، التي تسمى قومية أحياناً ، فهي شعور وطني محض أرهف من حده الاستعمار السياسي والاقتصادي يتجه الى اعادة تنظيم الجماعات ويستنفر القوى الكامنة لمقاومته والتخلص من جبروته . فهي بسبيل من وجهة الاسلام في هذا الشأن ، وليست عصبية بين الشعوب الاسلامية ، ولا هي كعقيدة الجنس النظرية التي قامت عليها حياة اوربة الى عهد قريب .

والمعروف من تأريخها وخصائصها انها حركات تتضافر مع الاسلام في وجه الاستعمار ، في كل مكان ، وهي وحدات ، نعم

وحدات احدثها عدوان الدول الاوربية على العـــالم الاسلامي واقتطاع كل دولة جزءاً منه تتحكم فيه ، لا انها هي كذلك او تريد ان تكون كذلك . وهي كلها تـكافح هذه الدول الباغية لتتحرر من سلطانها ، ووجهتها جميعاً الى الوحدة الكبرى الشاملة من غير شك ولا جدال .

والمراقبون الاوربيون يعترفون بان شعور المسلمين بالوحدة سلاح يدافعون به عن انفسهم ، ولن ينبذوه مستخفين به ، لانه يسبغ القوة على هذه الوحدات المتفرقة ؛ ويلاحظون ان النزعات السائدة تسير بقوة في سبيل الاحتفاظ بأساس اسلامي للقوميات الجديدة ، وان السعي لتقويتها هو من اهم الحركات في العـــالم الاسلامي اليوم .

ويقرر «جب» أن ثورة المسلمين على مبادىء الحضارة الاوربية التي تعارض الاخلاق ستدفع المثقفين منهم حتماً الى ان يزدادوا اصراراً على الدعوة الى الاخلاق السامية ، وان يصروا على مبدأ الاخاء الانساني الذي هو اساس الاخلاق الاجتماعية في الاسلام . وان النزعة الاسلامية آخذة في القوة على اسس اخلاقية ، ولا سيما مع تزايد النفوذ السياسي للطبقة الوسطى التي اثرت فيهـــا على الدوام تعاليم الاسلام الخلقية . وكلما زادت روح الديمقراطية في القوميات المقبلة ، زاد سلطان مبادىء الاسلام على العلاقات السياسية .

ويقول : « ان عاطفة الوحدة لتدُلّ دلالة محسوسة عـــلى وجودها بطريقة مطردة رائعة ، فـلا تمر حادثة تمس حياة العالم

الاسلامي من غير تعليق حماسي حاد في صحافة تذيع في نصف آسية وافريقية. وحين تأخذ هذه الحوادث شكلا خطيراً سواء في مراكش او ليبيا او فلسطين أو الهند او اندونيسيا تأتي قرارات الاحتجاج من كل فج وكلها متشابهة في اللهجة بل في العبارة، وليس عهدنا بعيداً بالجزء الاكبر من العالم الاسلامي حينما كان يخيل لمن يراه انه في سبات عميق حتى حسبه بعضُنا قد فقد الحياة. فأما اليوم فان حادثة صغيرة مثل قتل الشهيد عمر المختار تهز ما بين مراكش وجاوة، وكأنها صدمة كهربائية، وتولد تياراً من السخط الملتهب. حقاً ان ذلك الشعور المتولد يخمد سريعاً، ولكن تراكم اثر تلك الصدمات سيجعل رد الفعل اكثر قوة، وسيزيد العالم الاسلامي شعوراً بوجوده».

ونقول: ان هذا الشعور قد بلغ من نفوس الشعوب الاسلامية غايته، فهم يشعرون انه ليست هنالك شعوب اسلامية ولكن امة اسلامية وطنها حدود الاسلام، وبهذا الشعور بدأت الحكومات الاسلامية تحل ما عسى ان يحدث بينها من وجوه الخلاف. ولا تحسب ان امة من هذه الامم الاوربية تنازعت وامة اخرى أمراً بينهما، ثم استطاعت ان تنزل عن احقادها وتراثها، او تحسم نزاعها بزيارة يقوم بها ملكها لتلك الدولة او يقوم بها وفد اهلي لا صبغة رسمية له كالذي يستطيعه ملوك المسلمين ووفودهم في هذا العصر حين يقع بين دول الاسلام الحاضرة شيء من الخلاف كما يقع في العادة بين الاخ واخيه. ولست اذكّر ناسياً حين اذكر كيف ضرب الملك فيصل المثل الاعلى بنزوله

عن تراثه عند الملك عبد العزيز بن السعود فذهب اليه يصافحه ويشاوره فيما فيه خير العرب والمسلمين ، وكيف زار امبراطور ايران فحسم بزيارته النزاع الذي نشب بين العراق وحكومته على بعض الحدود ، أو كيف استطاع وفد اهلي ان يحسم النزاع بين اليمن والمملكة العربية السعودية ويرجع الجيش السعودي عن صنعاء بعدما طرق ابوابها بتذكير المتخاصمين بالاخوة الاسلامية وحقوقها في رقاب المسلمين .

وهذه الوجهة الى الوحدة الاسلامية التي تظهر اليوم عند المسلمين هذا الظهور القوي من ادراكهم التام لحقيقة الموقف الذي وُضعوا فيه ، تصحبها في المجتمع الاسلامي في الوقت نفسه ظاهرة رائعة من وجهة الاسلام الى توثيق الصلة بينه وبين الاديان الاخرى . وهي وجهة قديمة معروفة من اصول الشريعة وسيرة رسول الاسلام والتاريخ الاسلامي ، يحسن بنا ان نقف عندها وقفة قصيرة ، ثم نعْرِض لما عراها من بعد ، ثم كيف عادت الى الظهور في هذا العصر ، لتكون مناشئها بينة ، ولئلا يحسبها المتأثرون بالسياسات التي غرستها يد اوربة في الشرق « مفارقة » لاتنسجم مع الاندفاع الى الوحدة الاسلامية .

فمن المعلوم بالضرورة من الدين ان الاسلام انما هو دعوة الى الايمان بالله الواحد الخالق ، ورسالة مكملة للشرائع السابقة ومعبدة للحنيفية الفطرية التي تستند الى وحدة الله ، وتترتب عليها وحدة خلقه . يقول القرآن : « وانزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه » ، ويقول :

« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي اوحينا اليك وما وصينا بـه ابراهيم وموسى وعيسى ان أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه . كبُرَ على المشركين ما تدعوهم اليه » . ولم يختلف الرسول صلى الله عليه وسلم مع اهل الكتاب الا حيث كان تنزيه الخالق موضع شك ، وقد كان كثير التسامح معهم رفيـع الادب في مجادلتهم ، يقول القرآن : « ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتي هي احسن » ، ويقول في النصارى : « ولتجدنّ أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً ، وانهم لايستكبرون » ، ويقول في الملل الكتابية : « ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم اجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . وبالايمان بالله وحده لا شريك له تتساوى عنـــده القبائل والشعوب والاديان والرسل لقوله تعالى : « قولوا آمنا بالله وما انزل الينا ومـــا انزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم ، لا نفرق بين احد منهم ، ونحن له مسلمون » .

وسيرة رسول الاسلام مع اهل الاديان جميعاً سيرة كلهـــا رفق واحسان وعدل ، لأن دينـه لاينظر الى غيره من الاديان الا هذه النظرة الجامعة . وقد وضع اساساً صالحاً عادلاً يحدد موقفـه من اهلهـــا جميعاً فقال : « فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم »، فما حاد عن هذا الاساس . وكان من بينـــات عطفه ان أصهر الى النصارى ، فتزوج من قبطيـــة اسمها مارية

كانت أم المؤمنين وأم ولده ابراهيم ، كما تزوج من صفية وهي يهودية ، ليوثق روابط الصلة ، ولم تفته فرصة دون ان يوصي باهل الكتاب خيراً .

وفتح المسلمون البلاد التي كانوا يقطنونها فما أطاحوا بحقوق احد منهم ، وكان من أصول السياسة الاسلامية المساواة المطلقة بين المسلم وغير المسلم حتى في بيت مال المسلمين ، فهو ليس بمقصور على معاونة المسلم حَسبُ ، بل يُشركُ فيه غير المسلم بلا قيد ولا شرط . وفي قصاص عمر بن الخطاب من ابنه لأجل حق امرأة مسيحية قبطية اكبر الشواهد على العدالة الاسلامية ، وفي قوله : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم احراراً ؟ » كل مبادىء الاسلام من الحرية والاخاء والمساواة .

ويعترف السير توماس آرنولد في كتابه « انتشار الاسلام » بأن « الكنيسة المسيحية قويت وتقدمت في رعاية المسلمين وحكمهم ، وان جميع المذاهب المسيحية كانت تتمتع بالرعاية والتسامح من الحكام المسلمين على حد سواء ، بل هؤلاء الحكام هم الذين يمنعون اضطهاد بعض المسيحيين لبعض ، ويكفلون الحرية الدينية للجميع » ، ويقول : « تحت نظام من الامن يكفل حرية الحياة والملك والعقيدة الدينية ، تمتع المسيحيون - وعلى الاخص في المدن - بثروات ونجاح كبير في عصور الاسلام الاولى ، فكان منهم أرباب النفوذ الواسع في قصور الخلفاء » .

ومن المؤسف حقاً ان قابلت اوروبة هذه السماحة بالسماجة ، وحملتها سياساتها الميكيافيلية في عهودها الطوال منذ العصور

القديمة الى هـــذا العصر على ارتكاب موبقات وفظائع ومذابح لا حصر لها لم تعرفها شرائع الغاب ، وعبثت في وحـدة الشرق باسم حماية الامتيازات وحقوق الاقليات وأجرت من دمـــاء المسلمين وغير المسلمين أنهاراً ، حتى أصحرت نياتهـــا للجميع عن الاستعباد والاستعمار، فانجلت الغشاوات عن الابصار، وادركت الاقليات من الحقيقة ما ادركته الاكثرية .

لذلك كان على الاسلام في غمرة صراعه للاستعمار ان يصرّح عن محضه ، ويكشف عن وجهته ونيته غير متملّق ولا مداهن . فوضع امام الاعين المبصرة والقلوب الواعية كتابه الصادق ، وتأريخه الناطق ، وشعوره السليم . فصدقته غـــير مترددة ولا متشككة تصديقاً لا يتطرق الشك الى عاطفته الخالصة النزيهة ، واجابته على تسامحه واخلاصه فأيّدت مبـــدأ اعتراف الدولة بالاسلام ديناً رسمياً في مصر وسورية والعراق ، وظهرت رايات المتظاهرين في الثورة المصرية سنة ١٩١٩ ، وقد نُسجت خيوطها اهلة وصلباناً ،وهال مدام جهان دي فراي Madame Jehan d'Ivray ان شهدت قسيسين اقباطاً يعظون في المساجد ، وعلماء من شيوخ المسلمين يعظون في الكنائس طلبة من السوريين والموارنـــة والمسلمين ، وسيدات مصريات وتركيات جميعاً على وئام وثيق واتحاد مكين في سبيل القضية الوطنية ، وقالت : انها قـــد اصبحت تشهد من ذلك العجائب والغرائب في هذه الديار .

وقوي هذا التعاون في اوطان الهلال الخصيب، وخاصة في فلسطين ، حيث ظهرت الصهيونية تريد الاستيلاء عـــلى المسلمين

والمسيحيين الشرقيين معاً ، ويلاحظ ج. كمبفماير ان تجاوب المشاعر بين المسلمين والمسيحيين الشرقيين جعل كلا من الشعور الاسلامي والمسيحي يؤثر في تطور الآخر تأثيراً خفياً ، ولكنه قوي . وقد دهش الاب ف. ت. بنارت للعلاقات الودية بين المسلمين والمسيحيين في العراق ، واعجبه غاية الاعجاب ، وهو يتحدث عن المنشآت الاسلامية الحديثة الـــتي تقص الصحف أمرها ، أن رأى المسلمين اليوم في العراق يحذون حذو المصريين ويؤسسون بمساعي بعض العلماء هذه الجمعيات الاسلامية في حماسة من غير ان تمس المسيحيين بكلمة جفاء واحدة .

ونحن نرى في الجانب المسيحي الادباء المسيحيين العرب يمازجون بين عواطف الاسلام والعروبة ، ويهذبون بأدبهم المشاعر ، ويعملون على تقريب الوجهات كما يعمل عليها المسلمون ، ولهم الآيات البينات في التغني بمحاسن الحضارة الاسلامية ، ومنهم من فني في حب محمد رسول الاسلام كالاستاذ مارون عبود الذي ابت عروبته الا ان يتيمن فيسمي ابنه باسم بانيها الاول ، والاستاذ لبيب الرياشي الذي وصف فضائل محمد بما لم ينهض بمثله كثير من المسلمين ، وامثال شبلي ملاط والياس فاعور ونجيب نصار وجورج سلستي وغيرهم ، وكلهم اشاد في شعره ونثره بمحمد ، وتغنى بالاسلام ، واستعذب لغة القرآن .

ولست ادري ماذا بقي بين هذه النفسية المنصفة الصافية وبين الاسلام ؟ ومن المسلمين من فتنتهم اوربة عن دينهم فما التزموا فروضه وأوامره ، ولا ظفر منهم محمد ولا العروبة ولا حضارة

الاسلام بكلمة إطراء مع تميزهم على نظرائهم بالبيان .

كذلك التقى الاسلام بالمسيحية في هذا العصر ، واعـــادت مواقف احدهما من الآخر الى الاذهان مواقف العرب المسيحيين في عهد الفتوحات الاولى ، وقتالهم في الصفوف الاسلامية انتصاراً لعروبتهم في مثل واقعة الجسر وواقعة البويب ؛ وعاد الطابـــع القديم الذي طبع به الاسلام الشعوب على التعاطف والتراحم والمودّات ، كأحسن ما تطمع به الآمال .

ونحن نعتقد ان هذه الطلائع من تصفية العقول وتزكية الضمائر والرغبة الصادقة في التقاء وجهات النظر عند اصول الاديان جميعاً ، وهي الايمان بالله وحده لا شريك له ، ستنقل الناس حتماً - كلما ازدادوا وعياً وادراكاً لأثر هذا الأصل في الحياة البشرية - الى الافق الرحب الذي يليق بالانسانية ان تنتقل اليه بفطرتها الا وهو الاخاء الانساني العام .

فلا مرية في ان بنيان المدنية الانسانية الحق انما يقوم على هذين العمودين : الايمان بالله ، والاخوة الانسانية الجامعة في عالم واحد .

والمتأمل في الاسلام يجده حريصاً اشد الحرص عليهما ، فهو قد دعا الى التوحيد الخالص وبالغ في الدعوة اليه والتوكيد عليه كما بالغ في احترام رسالات الله التي دعت الانسانية الى هـذا التوحيد ؛ ليكون الايمان بالله واحـداً في حقيقته ومظهره . ثم عطف على الروابط الانسانية فركزها في اساس واحـــد هو بديهي جداً وغامض جداً في وقت معاً ، هو غامض لان الناس ابتعدوا عنه كثيراً ولانه يغيب عن الاذهان في غمرة هذا الصراع والتكالب

بنوازع الجهل والعصبيات ؛ وهو بديهي لانه قريب من نفس كل انسان لو فكر الانسان في نفسه وانسلخ من نوازعه الشريرة لحظة واحدة ، وهو بديهي فالناس جميعاً من نفس واحدة ، وانهم لذلك اسرة متشابكة الاجزاء متكافلة الاعضاء وليس بينهم الاقرابة تحترم ، ورحم توصل ... ولابقاء هذا الاصل سليما ايضاً امر الاسلام باتقاء الله فيه بالاحترام والتواصل والتعاون والمحبة ، لينتهوا جميعاً الى عالم واحد لا يستعلي فيه قوي على ضعيف كما نشأوا من نفس واحدة ، وليعيشوا سعداء بالرحمة والحنان والحب ، وذلك قوله تعالى (يا ايها الناس ، اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبثّ منهما رجالا كثيراً ونساء ، واتقوا الله الذي تساءلون به والارحام ، ان الله كان عليكم رقيبا) .

على هذا النحو او على هذا الاساس صاغ الاسلام مدنيته ، وحقق جمع الاجناس وتفاهمها وتعاونها . وله في ذلك ماض مجيد مشهور . ويعترف رجال الدراسات الاسلامية من الاوربيين بانه « لا توجد مدنية اخرى سُجل لها من النجاح في ان تجمع كثيراً من اجناس الانسان المختلفة مع التسوية بينهم في المكانة والعمل وتهيئة الفرص — كما سجل للأسلام » .

ويلاحظون « ان الجماعات الاسلامية العظيمة في افريقية والهند واندونيسيا ، والجماعات الصغيرة في الصين ، والجماعات الصغرى في اليابان : كلها تبين ان الاسلام لا تزال له القوة على ان يتألف العناصر التي لا سبيل الى التوفيق بينها بسبب الجنس والتقاليد » ، ويرون انه اذا لم يكن بدّ من ان يحل التعاون محل

الشقاق بين المجتمعات العظيمة في الشرق والغرب ، فان وساطة الاسلام شرط لا بد منه ، لان في يده الى حد كبير حل المعضلة التي تواجه اوربة في علاقاتها مع الشرق ، وان اتحدا زاد الامل زيادة لا حد لها في بلوغ نتيجة سليمة » .

على هذا النحو صاغ الاسلام المدنية الانسانية ، وعلى هذا النحو يعنى مفكروه في هذا العصر باظهار وجهته الكبرى اليها ، لا يألون في عرض حقائقها وبيان مناهجها والموازنة بين الاصول التي تقوم عليها الحضارة الاسلامية والاصول التي تقوم عليها حضارة الغرب ، لينقلوها من التراث العقليّ المجرد الى الميـدان العلميّ الواقعي ، ولينقذوا هذه الانسانية المعذبة التي تضطرب أحشاؤها بالرعب ، وتضطرم قلوبها بالاحقاد الآكلة ، ويعـدّ بعضها لبعض أفظع ما يسمو اليه الخيال المجنح من صور أدوات التدمير والافناء ، حتى اصبح السلام حلما لا سبيل الى تحقيقه ، وأمنية معسولةً ولكنها برق خلب وسراب كذوب .

والواقع ان الاساس الذي تقوم عليه حضارة الغرب لا يمكن ان يسلم الى غـير هذه النتائج ، وستظل الانسانية تعاني أزماتها الحاضرة ما دام هذا الاساس هو الذي يتصرف بالعقول والنفوس ويخلق فيها الظمأ القاتل الى المال ويهيج التنافس والنضال للحصول عليه مسقطاً « للمعاني الانسانية السامية والمبادىء الخلقية الكريمة ، مبادىء الأيثار والمحبة والاخوة ، فـــلا يكاد يمسكها ولا تكاد تعلق به » .

ومن هنا كان في اوربة هذا التناحر الذي لم تعرف الانسانية

في عصورها الطوال أوحش ولا أضرى ولا أفتك منه ، حتى عمّ بلاؤه الارض كلها لم يسلم منه القابعون في قلل همملايا ولا المنعزلون في سهوب افريقية .

يصف الاستاذ جود الفيلسوف الانجليزي المعاصر في كتاب له ، تطيره مما انزلقت اليه اوربة فيقول : « ان العلوم الطبيعية قد منحتنا القوة الجديرة بالآلهة ، ولكننا نستعملها بعقول الاطفال والوحوش » ويقول : « ان هذا التفاوت بين فتوحنا العلمية المدهشة وطفولتنا الاجتماعية المخجلة نواجهه عند كل منعطف ومنعرج ، نحن نستطيع ان نتحدث من وراء القارات والبحار ، ونرسل الصور بالبرق ، وننصب اللاسلكي في بيوتنا ، ونسمع في سيلان دقات (Big Ben) الساعة العظمى تضرب في لندن ، ونركب فوق الارض والبحر وتحتهما ، والاطفال يتحدثون على الاسلاك البرقية ، وآلات الكتابة صامتة ، وتملأ الاسنان من غير ايجاع ، والزروع تنمى بالكهرباء ، والشوارع تفرش بالمطاط ، وأشعة رونتجن (X-rays) نوافذ نطل منها على داخل أبداننا ، والصور المتحركة تتكلم وتغني ، ويكشف عن المجرمين والمغتالين باللاسلكية ، والغواصات تذهب الى القطب الشمالي ، والطيارات تطير الى القطب الجنوبي . ومع ذلك كله لا نقدر في وسط مدننا الكبرى ان نخصص رحبة يلعب فيها أطفال الفقراء في راحة وسلام ، ونتيجة ذلك أنا نقتل منهم ألفين ، ونجرح منهم تسعين الفا سنوياً . قال لي فيلسوف هندي في انتقاده اللاذع لاطرائي لعجائب حضارتنا ، وكان بعض سواق السيارات

قد نجح في قطع ثلاث مئة ميل او أربع مئة في ساعة على رمال Pendine وطارت طائرة من موسكو الى نيويورك في عشرين او خمسين ساعة (لا أذكر) قال الفيلسوف : نعم ، انكم تقدرون ان تطيروا في الهواء كالطيور ، وتسبحوا في الماء كالسمك ، ولكنكم الى الان لا تعرفون كيف تمشون على الارض » .

والاسلام حين ينظر الى الغرب فيجد فيه هذا التفاوت العظيم بين ارتقائه المادي هذا الارتقاء الذي لا مطمح وراءه ، وبين انحطاطه في الجانب الروحي هذا الانحطاط الذي جعله يستعمل قواه بعقول الاطفال والوحوش كما يقول الفيلسوف البريطاني ، ولم يعلمه كيف يمشي على الارض كما يقول الفيلسوف الهندي... بأسى غاية الأسى على المصير الذي يوجه الغرب العالم كله اليه ، ويتوجع كل التوجع أن يراه وهو يقطع ارحامه كما يقطع رحم الانسانية في كل مكان ، ولا تبالي دوله الكبرى – في سبيل نفسها وحدها – أن تتفق فتطرد العرب الفلسطينيين الابرار من مواطن اجدادهم وآبائهم باليهود الاشرار الذين يمدونها بالمال الوسخ إعانة لها على انتاج آلات التدمير والخراب ، او ان تزيل أمة من الوجود بقنبلة واحدة ينطلق منها مليون عزرائيل يتخطّفون بلحظة واحدة ارواح الشيوخ العجاف والأوانس اللطاف والاطفال الملائكة الابرار ، فلا تبقي على بناء مشيد ولا زرع قائم ولا حيوان من هذا الحيوان الاعجم الذي يؤسس الغربيون جمعيات الرفق به من أذى الانسان !

والاسلام بين توجعه وأساه يتحرك ويتحفز ، وبه من الغرب

اغلال ، ليحطمها ؛ ولكن لا تحطيم من يريد أن يثأر وينتقم ؛ لان العفو عنده أساس معاملاته ، وهو اقرب للتقوى ، بل تحطيم من يغار على كرامته أن تُذال ، وعزّتِه ان تُـذلّ ، ويقظته أن تخدر وتنوّم وتبعد عن واقع الحياة ، وقدرتِه ان تكبّل وتحدّ بنوازع الاثرة والطغيان ... ليعود مرةً ثانية ، فيصوغ ارادته بنشر روح الاخوة الانسانية في عالم واحد دعامته نظام روحي يكون اساساً للنظام التهذيبي واساساً لقواعد الخلق والعمل لا يضحى فيه بشيء من مبادىء الاخلاق في سبيل التنظيم الاقتصادي ومعاملة الافراد والجماعات .

وبومئذٍ تسخر هذه المصنوعات الجماد للخير وحده وللخير كله بعقول الحكماء والانسانيين لا بعقول الاطفال والوحوش ، وتتعلم اوروبة حين تطير في السماء كيف تمشي على الارض ، ثم تسير ويسير ركب الانسانية الى سعادته المنشودة في وئام ، وينعم الشرق والغرب جميعاً بنعمة السلام ، ويكون الدين كله لله .

صدى المحاضرات

بقلم الدكتور نقولا زيادة

●

— ١ —

اما وقد وصل القارىء الى هذا المكان من الكتاب ، وكوّن لنفسه فكرة عن هذه الابحاث التي عرضها المحاضرون على الجماعة فمن حقه ان يعرف القضايا التي اثارها اعضاء المؤتمر ، وتناقشوا فيها ، ولست ازعم انني استطيع ان اضع هذه القضايا جميعها امام القارىء ، لذلك فانا مضطر الى الاجتزاء بالاهم منها ليتمكن القارىء من النفوذ الى هذه المشاكل ، لعله ينتقل هو منها الى اثارة مشاكل اخرى .

فالمعلق على محاضرة الدكتور احمد زكي بك قال لما فتح باب المناقشة : « وقد انتشرت المادية بين الجماهير ورافقها الالحاد ، فعم القلق وطغى الخوف وساد الخور واصبح الناس اعداء بعضهم لبعض يتراشقون بالتهم ويتفرقون الى كتل وكتل شرقية وغربية تتربص كل منها الوقيعة بالاخرى وتهدد باستعمال القنبلة الذرية والهيدروجينية وتهدد بالتالي بالفناء ، فناء هذه المدنية الغربية

المادية التي لا ضابط روحي لها ولا وازع من ضمير او وجدان ، فالعلم قد حطم الروح ، وجر الى الالحاد وهدر القيم الروحية ، والعلم وحده كفيل بان يسمو بالروح ، ويهدينا سواء السبيل» .

« ومشكلة اليوم هي تلقيح الحضارة الغربية المادية بالروح الخيرة وقيمها الرفيعة . فنحن لا نخشى الحضارة الغربية ، ولكننا نخشى ان تجرف معها تراثنا الروحي ، ولكن هذا التراث لن يصمد امام المدنية الغربية إلا اذا آمنا بالعلم وآمنا بشرعة التطور والارتقاء ، فعام الهجرة هو غير عام ١٩٥١ وسيكون عام ١٩٦١ غير هذا العام»

وهذا التعليق اثار السؤال الاول الرئيسي وهو : « هل حقاً ان الحضارة الشرقية روحية مبدئياً ، بينما نجد ان الحضارة الغربية خلو من الحياة الروحانية ، بل هي مادية صرفة ؟ » وتلا ذلك قضية تفرعت عن الاولى وهي : « ما معنى القيم الروحية التي نحاول ان نتبينها في الحضارتين او العالمين ؟ أهي التعاليم الدينية السماوية ؟ وفي هذه الحالة تكون موجودة في الحضارتين ، ام هي شيء آخر ؟ » .

والذي خلص اليه المتناقشون هو ان القيم الروحية هي القواعد الخلقية والمثل العليا المبنية على التعاليم الدينية والمنطوية على النظر الى الانسان من حيث انسانيته .

واشتد الجدل حول روحانية الشرق وروحانية الغرب . وكان الفرق بين وجهات النظر كبيراً ، والذي برز في النهاية من هذا النقاش هو ان الحياة الروحانية لا بد من وجودها في حضارة اساسها العلم وروحه والمساواة التامة في جميع مرافق الحياة .

ولفت نظر الموجودين الى التفريق بين الروحانية الشكلية التي قد تكثر في حياتنا ، والروحانية العملية الاصيلة .

وعرض القوم الى قضية جمود الحياة الفكرية في عالمنا العربي والبحث عن اسبابها . والنقطة التي دار البحث حولها هي العلاقة بين جمودنا الفكري وبين سيطرة الميتافيزيقيات في حياتنا . واذا كان ذلك هو السبب فهل نستطيع ان نتخلى عن هـذه الابحاث الميتافيزيقية لنبعد سلطانها ؟ وهل مثل هـــذه الخطوة ضرورية لنتمكن من قبول العلم دليلاً ومرشداً في حياتنا واساساً لحضارتنا؟ وهل في قبولنا العلم في هذه المرتبة ما يحطم حياتنا وكياننا ؟ ام ان مثل هـــذا السير يؤدي الى تقوية تراثنا الروحي بحيث يستطيع ان يلقح الحضارة الغربية نفسها ؟

-٢-

ومحاضرة الدكتور الحمصاني انتزعت من المعلق هذه الاراء ، التي مهدت الطريق للنقاش ، وهي : « ان الشرائع جميعها أُنزلت للناس ... فهي اذن ذات صبغة اجتماعية ، او على الاصح ذات غاية اجتماعية لا يجوز ان تغيب عن البال . وجماع هذه الغاية الخير والنفع والرشاد للناس في كل زمان ومكان . ولقد وهم من اعتبر العبادات منوطة بالخالق وحده . فهي لا تعدو ان تكون وسيلة – كسائر اقسام التشريع العام – لخير المجتمع . اذ القصد منهـــا اولاً ترسيخ الشعور بالرباط الانساني عن طريق جمع شمل الانسانية حول قطب واحد أحد . وثانياً استمرار يقظة الضمير الانساني .

« ولقد فتح التشريع الاسلامي ابواباً لا باباً واحداً للحفاظ على الغاية الاجتماعية كما بين الاستاذ المحاضر . وما الاجتهاد والاجماع وقاعدة تغير الاحكام بتغير الازمان وما الى ذلك الا مسالك لصرف التشريع نحو غايته الاساسية ، وهي تحقيق مصلحة المجتمع الانساني في كل زمان ومكان .

« واذا صح ما ذكرنا وجب على المشرعين ان يلتفتوا الى امرين : الاول عدم الفصل بين الشرع والانسان ، اعني عدم فصل الشرع عن هدفه الانساني . والامر الثاني معرفة مقام الانسان عند ربه الذي اكرمه وسخر له سائر خلقه وايفاء هذا المقام حقه وعدم التفريط به .

« واود اخيراً ان اشير الى ان التشريع تابع للمجتمع والمجتمع متطور حتما . وبتطوره ينحي بعض القوانين ويعدل بعضها ويتطلب قوانين جديدة . ولا يترتب على ذلك الغاء الشرع البتة ، لان مواده تظل ثابتة في مكانها تعلق عند الحاجة اليها . وتظل روح العدالة والمصلحة العامة المنبثقة من الشرع سائدة في جميع ما يشرع به في حدود القواعد المتفق عليها . ومن جهة اخرى فان المجتمع كلما ارتقى - قلباً وقالباً - قلت حاجته الى التشريع ضرورة . ولا شك في ان الاستقرار الاقتصادي المتين ، والعدالة الاجتماعية الشاملة ، والعلم والتربية الحقين ، تجعل المجتمع المتوافرة فيه اقلّ حاجة الى قوانين » .

وقد كان الدكتور المحمصاني قد انتهى الى القول بان تاريخ التشريع في الاسلام اظهر ان هذا التشريع كان قابلا للتطور

والنمو وملاءمة الامكنة والازمنة المختلفة التي مرت عليه . والامر الذي اثاره المؤتمر في المناقشة هو هل هذا الذي صلح في الماضي يمكن ان يصلح في الحاضر والمستقبل ؟ واذا كان ذلك ممكنا فالى اي حد يمكن تعطيل بعض نواحي الشرع رغبة في مجاراة الحاجات الطارئة ؟ ام هل من الممكن التحلل في بعض النواحي بحيث تحلّ مشاكل لم تكن قبلُ قائمة في المجتمع ؟ والى اي حد يجوز ان تعدل او تبدل قوانين الاحوال الشخصية بحيث تؤدي الى تساو تام بين رعايا الدولة الواحدة على اختلاف في مذاهبهم ؟ وهل يمكن فصل الدين عن الدولة في الاسلام ؟

— ٣ —

ومحاضرة الاستاذ الخالدي ، التي دارت حول المدرسة في اطارها التاريخي واتجاهها كاداة اجتماعية ، استخرجت تعليقاً من رئيس الجلسة اذ قال : ألحّ (المحاضر) كل الالحاح على تحسين المدرسة ، ووضع مركز الثقل في بحثه في المناهج وخطط التعليم وتحضير المعلمين . ولكنه لم يتعرض مباشرة الى نقطة اساسية اخرى تستدعيها مقدمته التاريخية الا وهي علاقة المجتمع بالمدرسة . ولعله اغفل هذه الناحية عمداً لاعتقاده ان موضوعه يدور حول فكرة المدرسة وحسب . ولكننا في الواقع لا نستطيع الفصل بين المدرسة والمجتمع ... فالمدرسة تعكس النظام الاجتماعي الذي توجد فيه . ولذلك فاذا ما اردنا النهوض بالمدرسة وجب تحسين الوضع الاجتماعي ، « وذلك بان تتوفر الفرص للعمل وان يحسّن النظام الاجتماعي ويحترم العمل وتعم العدالة الاجتماعية . كل هذه

الاصلاحات يجب ان تتم جنباً الى جنب مع الاصلاح المدرسي . وعلى الامة العربية ان تدرك ينابيع الحضارة الغربية وتتعرف الى جوهرها وفلسفتها وروحها والا تحصر مفاهيمها بالقشور المادية السطحية فقط ... فالانعزالية الفكرية لم تقترن يوماً مع انطلاق الامة العربيـة وتقدمها ، بل بالعكس رافقت تفككها وتقهقرها في جميع الميادين . »

إما المعلق على المحاضرة فقد اثار النقاط التالية حول الاهداف والوسائل التربوية والمثل التي تهدف اليها المدرسة. قال: « ولكن ما اهداف المدرسة العربية ؟ الاهداف العامـــة في نظري هي التعلم الصحيح والاخلاق ولا سيما الجماعية والعمل المنتج .

« ان التعلم الصحيح ، كما تعلمون ، هو ان يفهم الطالب بيئته الطبيعية والاجتماعية والفكرية ، ان ينتبه الى ما يشاهد ، ان يحلل وينتقد ويستنتج ويبتكر . ولا يأتي ذلك إلا عن طريقين . اولا ان تكون مواد الدراسة ملائمة لمدارك الطالب العقلية ومتصلة بحياته اتصالاً وثيقاً ، وثانياً ان يكون المدرّس مدرباً تدريبـاً صحيحاً لكي يتمكن من تدريب طلابه وتربيتهم التربية الحقـة .

« قلت ان من الاهداف العـــامة الاخلاق ، فالمدرسة ليست مكاناً يدرس فيها الطالب اللغات والعلوم فحسب . بل هي دار التربية ، هي دار ممارسة الاخلاق الطيبة - الاخلاص والتعاضد والشعور بالواجب نحو الفرد والجماعة . . . وقـد قلت ان من الاهداف العامة التي تحفظ استقلال الأمة وكيانها العمل المنتج . ان اساس العلم والتعلم والعادات والحياة كلها هـــو العمل فهل

يمكن تفهم العلوم الطبيعية دون العمل في المختبر ؟ وهل يمكن الاختراع دون العمل؟ وهل تكتسب العادات دون ممارستها؟ وهل يمكن الانسان ان يحيا بغير العمل ؟ فلنقلع عن الكلام ولنندفع الى العمل ، العمل المجدي ، العمل المنتج . »

« ... واكرر فاقول: لا خلاص للشرق إلا بالتحرر من الجهل ومن الفقر ومن الاثرة الفردية والانقسام . ولا يتسنى ذلك إلا بالتربية الصحيحة وبالعمل . »

والنقاش الذي تلا ذلك دار في الدرجة الاولى حول الكتب والمناهج المدرسية ووسائل اصلاحها ، واثر المدرسة في تغيير عقلية الجماعة . وفي صدد اصلاح الاساليب عرضت المسألة التالية «سؤالي يتعلق بماسماه المحاضر ، امس، الاساليب العقيمة في التدريس ـ تدريس اللغة العربية نفسها ، اداة التعبير عن الفكر عندنا .

« لقد مس المحاضر هذه الاداة الكبرى مساً رفيقاً وكم تمنيت لو وقف عندها وقفة المستطيل . ذلك ان النظر الى هذه اللغة انما هو نظر الى مستقبل العلم والفكر والدين والفن عند العرب . او ليست تعبيراً عنها جميعاً وبثاً لها جميعاً ، والصورة المتصلة بمادتها جميعاً ؟

« واذن كيف يمكن ان يكون لنا علم ايجابي منظم وفكر حر وتشريع عادل ومنطق في قواعد اللغة مكتمل ، ونحن نقدس الحرف في هذه اللغة ونؤمن به تنزيلاً من السماء على الارض ، لا تصعيداً من الارض الى السماء ؟

« فهل يمكن ان نجرد هذا الحرف مما حمله عبر الزمان من عقيدة

هي وحدها الموحى بها (اذا شئتم) وان ننزع عنه قدسيته ونناوله للعالم العربي – من هذا المؤتمر – لساناً بشرياً ، يدرس وينقد وتجري عليه سنة التطور كما تجري على الاحياء من ابناء البقاء ؟ اذ كيف تبرأ اساليبنا من العقم ونحن نرهب الحرف ، ونقيده بالدين ونعفر جبين المنطق والعلم على اقدامه ؟ »

– ٤ –

اثارت محاضرة الشيخ الاثري من النقاش الشيء الكثير ، ذلك ان الاستاذ المحاضر عرض لقضية اساسية جداً في الاتجاه السياسي للعالم العربي ، والاسس التي يجب ان يقوم عليها . فالاستاذ الاثري يرى في الجامعة الاسلامية الحل الاخير والوحيد للمشاكل المختلفة التي تجابهها هذه الرقعة من الارض الممتدة من «مراكش الى جاوه» . وهذا رأي له خطره عند الذين يرون ان يقوم الأمر في العالم العربي على قومية عربية . ودارت المناقشة حول هذه النقطة ، كما عرض المجتمعون لقضية فصل الدين عن الدولة .

وكان المعلق اول من اوضح قضية القومية العربية والفرق بينها وبين الجامعة الاسلامية فقال :

« فالوحدة الاسلامية في عصرنا الحاضر ليست الا مظهراً سياسياً يؤمن به فريق من المسلمين يحلمون بعودة الامبراطورية الاسلامية الكبرى . ولكن الاتجـــاه الحديث في لبنان وسوريا والعراق وفلسطين ومصر هو اتجاه عربي لا علاقة له بالدين . ولا ريب في ان المحاضر يتحدث عن الباكستان اكثر مما يتحدث عن مواطنيه العرب القوميين حين يشيد بهذا الحكم .

« وحقيقة الاسلام : دين روحي في اساسه ، واتصل بالسياسة لتوطيد اركانه الروحية . وحين اتصل بالسياسة اتصل بالاجتماع والتشريع فنظم للعرب - في الاساس - شؤون معيشتهم اذوضع لهم نظاماً اصلاحياً شاملاً اثبت نجاحه حين كان المسلمون متمسكين به ... وبسبب من نشوئه التاريخي ... اخذت تزول عن الاسلام هذه البساطة ليحل محلها الجدل والكلام والسفسطة والفرق والشيع والمذاهب ... والذي ساعد على بقاء هذه المذاهب الفقهية وانتشارها اصطباغها بالطابع السياسي، فزالت العقيدة وحلت محلها السياسة . ولقد كانت جميـــع المحاولات الاصلاحية سياسية لا روحية او روحية سياسية . فالحركة الوهابية حركة سلفية لم تلبث ان اصطبغت بالصبغة السياسية . والحركة الجمالية الافغانية حركة سياسية صرفة . اما نهضة محمد عبده فانها النهضة الاصلاحية الروحية الوحيدة في الاسلام .

« ولعلّ الصعوبة القائمة في وجه الاصلاح الاسلامي هي ماثلة في هذا الكمال الذي نشاهده في تراثنا الفكري والمذهبي والتشريعي والاجتماعي ، لقد ورثنا مذاهب وشرائع ومعتقدات كاملة الكمال كله ، بحيث انك لن تجد فيها ثغرة للنفاذ الى اصلاحهـا ، هـذا الكمال يجعل المحاولة صعبة ان لم تكن مستحيلة .

« ولا يصلح آخر هـــذا الدين الا بما صلح به اوله . وكان الاسلام في اوله قائماً على البساطة ، فالعودة الى البساطة الأولى والاعتماد على الكتاب وما ثبت لك من سيرة الرسول وحديثه ، والاعتماد على حرية التفسير التي دعا اليها لوثر في فهم كتاب الله

والابتعاد عن هذه الادران التي علقت بالاسلام ، هذه كلها يصح ان تعتبر اساساً لاتجـــاه صحيح نحو الاصلاح . وعندئذٍ تزول الفرق والمذاهب ولا يبقى الا مذهب واحد وهو الاسلام الصحيح .

« ان الاسلام قد خرج عن حقيقته حين اصبح جدلاً وسفسطة وهو يعود الى حقيقته حين يصبح ايمانـــاً بالكتاب وتفهماً حراً لمعانيه ، بصرف النظر عن السياسة والدولة والشؤون الدنيوية الاخرى . فالدين ارفع من ان ينحط الى هذا الدرك . »

وكلمة المعلق هذه اثارت المشكلة الاولى ، الـــتي كان من الطبيعي ان تثار ، وهي قضية فصل الدين عن الدولة . فقد قال احد الاعضاء : « ان الذين يدعون الى جامعة اسلامية هم بنظري كالذين يدعون الى انشاء وطن مسيحي في لبنان ووطن يهودي في فلسطين ، فهم يريدون اقامة القومية على اساس الدين . وماذا ينتج عن ذلك ؟ افساح المجال لوقوع الاقليات فريسة هينة للاجنبي يوجهها التوجيه الذي يرسمه لها ، وعند ذاك تندفع اندفاعاً كليـاً لانشاء اوطان قومية تعلمون ونعلم ما هي اهدافها . اننـــا ، يا سيدي ، نريد ان نفصل الدين عن الدولة ... نريد الغاء الطائفية من حياتنا السياسية » .

وهذه الدعوة الى فصل الدين عن الدولة اعتبرها فريق من الاعضاء عنصراً ضرورياً في سبيل دعم القومية العربية ، واتجاهاً صحيحاً في سبيل الدعوة اليها . اما المحاضر في الرد عليها فلم يرض بان يكون الاسلام قوة روحية فحسب ولكن قوة سياسية ايضاً . »

وقد اثار عضو آخر مسألة هامة ، لم يتسع الوقت لمناقشتها تماماً ،

وهي موقف الباحثين المسلمين من العقل والنقل ، او موقف العلم من الدين ، والمشكلة هي ماذا يحدث عند ما يتعارض العقل والنقل في قضية ، وايهما احرى بالاتباع ؟

ووجهة نظر المحاضر في رده كانت ان الاسلام في القرن الثالث للهجرة تعرض لهذه الازمة الفكرية ، وخلص الباحثون المسلمون إلى نتيجة لا تزال قائمة ، وهي أن العقل والنقل لا يمكن ان يختلفا ، ولا بد ان يتفقا . واذن فالاختلاف بينهما فرض لا تبرر وقائع الحال وجوده .

— ٥ —

هذه بعض اصداء للنقاش الذي جرى بين اعضاء المؤتمر في وست هول حول هذه القضايا . ولكن الاصداء لم تقتصر في الواقع على هذا البناء . فقد رددت الصحف في بيروت اصداء اخرى .

والشيء الذي بدا واضحاً هو ان المؤتمر كان منبراً لتبادل الرأي الحر . فقد قال كلٌ ما رأى ، وسمع لرأيه جواباً ، قد يكون قبله او رفضه ، ولكن المهم هو ان المخالف له ، مثل الموافق لرأيه ، استطاع ان يقول ما يريد .

واحسب ان الاختبار الذي كسبناه من عقد هذا المؤتمر ، سيكون حافزاً لنا على عقد مؤتمرات اخرى ، تعرض لمشاكلنا ، ونتبادل فيها وجهات النظر ، دون ترويج لرأي معين او فكرة خاصة او اتجاه مقصود .

فهرست

	صفحة
مقدمة	٥
مؤتمر الدراسات العربية	٨
موقف الفكر العربي من الحضارة الغربية	١١
التشريع الاسلامي والمجتمع الحديث	٣٧
المدرسة العربية	٦٠
الاتجاهات الحديثة في الاسلام	٨٥
صدى المحاضرات	١٣٣

١٣٨ — ٦ — ٥١

*PB-37348
5-20T
C-C

Date Due

Demco 38-297

PERMA-BOUND

NYU - BOBST
31142 00289 4262
DS231 .A7
al-Arab wa-al-hadarah al-hadit

صدر حديثاً :

كيف تكسب السعادة	لبرتراند راسل	١٥٠
قادة الفكر الحديث	ج. ب. كوتس	١٥٠
عبد الله بن المعتز	عبدالعزيز سيد الاهل	٣٠٠
عبقرية ابي تمام	» »	١٥٠
ابو طالب	» »	١٠٠
غابة الكافور (قصص)	سعيد تقي الدين	١٥٠
كاهن نساء (قصص)	سهيل ادريس	١٠٠
شفتان بخيلتان (قصص)	رياض طه	١٠٠
قصة السينما	صلاح دهني	١٥٠
دنيـــا وأديان	الدكتور نقولا فياض	١٥٠
ساعة الملازم	الدكتور عبد السلام العجيلي	١٥٠

الثمن ٢٠٠ قرشاً لبنانياً او ما يعادلها

مطابع دار الكشاف - بيروت